خط الاستواء البارد

الدسوقي فهمي

◆ المؤلف: الدسوقي فهمي
◆ العنوان : خط الاستواء البارد
◆ طبعة آفاق الأولى 2019
◆ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
◆ مستشار النشر: سوسن بشير
◆ المدير العام: مصطفى الشيخ

رقم الإيداع:
٢٠١٦ / ٢٦٨١٦
الترقيم الدولي : ISBN
978 - 977-765 - 091 - 5

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

الدسوقي فهمي

خط الاستواء البارد

قصص قصيرة

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشؤون الفنية

فهمي، الدسوقي.

الدسوقي فهمي : خط الاستواء البارد

ط1 القاهرة – دار آفاق للنشر والتوزيع – 2019

144 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 26816 / 2016

الترقيم الدولي 5 – 091 – 765 – 977 – 978

1 – الأدباء (روايات)

2 – فهمي، الدسوقي

المقبرة تحت المسكن

كان كل شيء قد أُعد، وكانت نجاة قد وصلت قبلنا، فبدأ الحفر لحظة وصولنا إلى الموقع، كانت نجاة قد أشعلت النار داخل خيمة المطبخ، قدمت لنا الشاي، وكان الحفر يتجه بنا هذه المرة إلى عصر الهمجية، إلى ما قبل الأصول، قبل الكتابة وقبل الزراعة؛ التي كنا نراها أمامنا على البعد، لكن النار كانت قد وُجدت، كانت نجاة قد أشعلتها، ونجاة كانت أنثى عديمة الحكمة، كانت بعد فتاة. وكانت تقوم بإنضاج الطعام لغدائنا، وعند لحظة وصولنا كانت قد لمحت العربة الجيب قادمة وسط الجبل، فرفعت الوعاء من على «الوابور»، وصنعت لنا الشاي.

كانت تتبع غريزتها في بدائية، ولم تكن مضارب خيام البدو تبعد كثيرًا عن مكاننا، قطعان الجمال والمعيز، وخيامهم أيضًا كخيامنا؛ كانت لديهم هناك بضعة نعاج ممتلئة مستلقية على الرمل؛ كانت هناك نساء، وكانت نجاة تفوق نساءهم فتنة، هي التي أتاحت لنا أن ندرك هذا، اشترت لنا منهن البيض، ثم عصبت شعرها الغزير الفاحم بمنديل أبيض، وارتدت تحت الثوب الضيق على جسدها الممتلئ بنطلونًا (كاوبوي) أزرق حال لونه.

كانت أثرًا هي أيضًا، رسالة بَلَغَتْنا، وفهمنا مغزاها عبر المسافة والزمن، كانت (أمفورة) أثرية هي أيضًا بالغة القدم ومعاصرة في وقت معًا، (أمفورة) سرحة وممتلئة، ملفوفة مخبوءة دائمًا ومتبدية في بنطلون قديم، أمفورة أو فازة، ليته يتاح لنا نحن الذين نحاول أن ننبش القديم، ونفهمه؛ أن نفهمها هي أيضًا، كانت تعْنينا نحن؛ في الجبل، وفي مواجهة الجبّانة القديمة التي نسعى إلى مكاشفتها، فلم تُصَادِفْ؛ لم تخضع لتأثير أيٍّ من عصور التاريخ المكتوب.

كنا وَلَّيْنا وجوهنا كلنا إلى بدائية ما قبل التاريخ، فتقابلنا كلنا معها على سطح الطبقة الأولى، بين الجبل والزراعة، بعد ما تبادلت دلتا وأدينا دورها مع صحرائنا؛ لا ندري منذ متى على وجه التحقيق. كانت الدلتا مستنقعًا موحلًا؛ لما كانت الصحراء والجبل مراعي كلها كالسافانا في آخر العصور القديمة الممطرة.

وكنا كلنا، كانت (جعارين) الموقع كلها تتابع تضاريس جسد نجاة، وطبقات المحفرة الأولى التي هبط العمل بداخلها في حذر، وبنفس الانتباه.

كانت تمثل لنا الطعام، و.. كانت كإلهتنا القديمة (حاتحور) ترتدي فوق بنطلونها الشاحب، المفتوق، في قلب الجبَّانة الأزلية القديمة، ثوبًا مرصعًا بالنجوم على أرضية زرقاء توحي بالسماء في لوحات الإلهة (نوت)، ومنديل الرأس الأبيض، ينسدل من تحته على جانبي وجهها؛ شعرها، في ضفيرتين كثيفتين تستقران على الصدر؛ كنقش ملون لأنثى قديمة مصرية في احتفال وثني.

ذكرني كيانها بعد ذلك بالإلهة (نبت حت) (ست البيت). لحظة دخلوها خيمة المطبخ، فاستقرت صورة ميزان العدالة في خيالنا على تلك الحال، ريشة الإلهة (معات) في كفّة، وبنطلون رعاة البقر، و(حاتحور) على رأس القطيع في الكفة الأخرى.

وكانت حافية القدمين دائمًا، حتى تتزن المواجهة، كانت قدماها متشققتين أيضًا لطول ما سارت فوق الرمال الساخنة.

جانبها المتعمد المكتب كان لنا، وغموضها كان مع الجبل ومع الليل، أما هاتان القدمان فكانتا كأقدام باقي عمال الحفر؛ كانتا مع الجعارين، وكانت ساقاها الممتدتان الممتلئتان، وجذعها الخصب، وعنقها الطويل، وحيويتها، وضفيرتاها كفرعي النيل عند رأس الدلتا، واندفاعتها البدائية قد وقفت في صف (الكل) منذ قديم؛ أوحى لنا جذعها ذاك الخصب الممتد كله، بفورة سحر الدولة الوسطى، بتعويذتها الدافعة؛ وكل فتنتها.

قال حفّار من أتباع الإله (بتاح) أنها تذكره أيضًا بـ(سخمت) المناضلة، ربة الالتحام الوحش، المتعطشة في وحشة جبانة (منف)، يذكره بنيانها بتماثيل إلهة الحرب والمواجهة، الوداعة دائمًا أمامك؛ لو أسلمت نفسك للوهم.

أوشك الحفارون أن يفرغوا من تنظيف قاع الطبقة الأولى.

فبدأ حوار ما لحظة وصول كومة الظِّران القاتم، البني اللون، ووضع المرمِّم يده على فص العقيق الوردي، مستدير، يمكن أن يهديه المرمم المتين البنيان، مندوب إله قفط، في موسم التناسل، عربون تفاهم، قربانًا

إلى تلك الواقفة أمام عرش حاتحور في خيمة المطبخ.

أحسسنا بالجوع.

أخرج مندوب الإله (بتاح) إله سقارة، وحامي الفن التشكيلي القديم فحسب، ذلك العاقل الذي أفسح للمنطقة مكانًا ما في تفسير لاهوت نشأة الوجود، أخرج لنا مندوبه علبة سجائره الكليوباترا، فاكتفينا مؤقتًا معه، بالاستغراق في شعائر طقس التأمل، بينما يتصاعد دخان التبغ وبخوره، إلى أن يحين تقديم القرابين المطبوخة إلينا نحن ورثة التاسوع الوثني القديم.

أشركنا معنا -لروحنا العليمة- بعض الشابقين علينا في نقاشنا.

كنا قد شرعنا في النقاش.

اصطدم المعول لحظتها بحفنة من رؤوس السهام. (مطاردة الفريسة أو جمع الثمار؟)، وكانت أواني الفخار؛ فريبة الطراز حقًّا أشبه بالقنابل اليدوية، جدرانها غليظة صفراء اللون (أوكر) وقاتمة، بعضها يحمل على سطحه الخارجي آثارًا واضحة لحريق ما.

اختلس الدكتور الفرصة؛ سأل الريس ياسين عن حقيقة شظية من الظِّران.

- مشغولة (الفِلِنْته) دي يا ريس، والّا خام؟

- دي الأم ذات نفسها يا دكتور، الأم اللي كَسَرْ منها الشظية؛ السلاح المشغول زي كده، سنانه متوضبة؛ زي سنان المشط، زي سنان المنشار.

وضعها الريس في الكيس النايلون، والدكتور مستند إلى ركبته،

يكتب رقمًا ما. و.. (أدوات قطع، وأسلحة مشغولة من الظِّران).

– آلة حادة، بلا أسنان، شفرة ربما..

– استخدمت في السَّلْخْ..

قال سير مورتيمر هويلر..، كتابه بيد المصوِّر، يتصفح صوره عن حفائر الهند. كانت معنا كتب عديدة، تتناول أمورًا؛ يفصلها عن بعضها البعض، قواطع حادة ومسافات..

«هذا إذا تركت نفسك للوهم!».

يقول هويلر: إن الحفّار، أي (حفّار)، إن لم يهتم بالإنسانيات؛ أو أخطأه أن يقرأ الآثار التي بين يديه قراءة إنسانية صحيحة، فإنه لن يعدو أن يكون مجرد عامل فني (زي لافي اللي قدامك، أو زي أبو الدوش)، مجرد حرفي، يضيف رمادًا إلى رماد.

وصل عاشور، شيخ الخفر، هبط الجبل متجهًا نحونا على البعد، وخلفه اثنان من رجاله، كانوا قد غادروا الموقع قبل ساعات، لشراء بعض علب السجائر.

صاح خفير الليل متهللًا: يا رفاعي!

انتبهنا، كنا قد نسيناه.

بعد أن تذهب نجاة، كان الحفارون يشرعون في سبر أغواره، كان جس نبضه واستجوابه يبدأ فور مغادرتها للمكان.. متى سيتزوجها؟

وكان وسط سعاله الجاف الذي لا يتوقف، يقلب لنا عمق مقبرته البعيدة الغور؛ كل ليلة؛ إلى السطح، ينتقّل معنا دائمًا من موقع إلى آخر،

كان يعترف أيضًا في كل مرة، أمام كهنة إله (الهزار) القزم، قبل أن يتكوم، إلى جانب إحدى الخيام، وبجواره كلبه الفاني مثله.

لم يكن متأكدًا بعد تمامًا من حبها له!

كنا ننساه أحيانًا، كما نسيناه الآن، عندما يرهقه السعال حتى ينقطع، وقتًا ما.

يهب أحد الحفارين فجأة، في الليل، فيفتح باب الخيمة، ويطالبه بأن يذهب لينام، ويأخذ معه الكلب، في إحدى الخيام.

- مش عاوزين حراسة، روح نام، الدنيا برد.

- الدنيا أمان..

وصل الشيخ عاشور. ذراعه ممدودة أمامه، وأصبعاه الإبهام والسبابة تطبقان على رقبة ثعبان ضخم، وبيده اليسرى عصاه.

ألقاه على الرمل فانطلق زاحفًا في سرعة، أسرع خلفه شيخ الخفراء، رفع أحد الحفارين عصاه، فتكوَّم الثعبان، التف حول نفسه في دائرة، وسكن..

قال عاشور: اسمه الأرقم، حَقُّه صاحي يجيب كيلة حَبْ، العربيات الجيب بتيجي الجبل تشتريه.

كان بنِّيًّا لامعًا، يغطيه نقش تجريدي يتكرر على طول الظهر، وبطنه أبيض لامع، ممتلئ، ناصع البياض، يتردد على جوانبه انعكاسات بلون سماوي متألق.

قديمًا كان رمزًا للألوهية، يضاف نقشه إلى أسماء التاسوع. لم

ينازعه في ذلك سوى نقش الصقر، لكنه مطعون بسكين حادة في ظهره، تبقى هكذا فوق نقوشه في حجرات الدفن، تفقده خطره تمامًا، ويبقى حارسًا للميت.

لابد من سكين حادة، تنغرز في ظهره، ليصبح حارسًا عاجزًا، مناسبًا في مملكة الظلام كحارس خيامنا الليلي.

تذكر شيخ الخفراء لتوه، سجائرنا (الكليوباترا) التي كان قد ذهب لإحضارها.

«الطبقة الثانية لم يعثر بها على شيء»، قال الحاج سماعين ذلك.

ثم؛ تغيرت التربة في أعلى الطبقة الثالثة، أصبح التراب الأسود ناعمًا، وأبطأت سرعة الحفر.

سكين أخرى، كبيرة حادة من الظِّرَّان، فأين الفريسة، وأين الوحش؟

سكين أخرى بها ثقب.

استخدمت أخيرًا للزينة.

بدأ العمال ينخلون التراب بالمناخل؛ كما ينخل الدقيق.

الطعام، العجين.. والمرأة.

اتجهت نجاة ناحيتنا تحمل (القلة) فوق راحة يدها.

بدت فوهة المسكن مع نهاية الطبقة الثالثة، جدرانه المبنية بالطين، أخذت تتحدد على مهل.

افترش الحفارون الرمل، وفرشوا زواداتهم، العيش والجبن والبصل.

كانت قد انفتحت أمامنا بعرض الأصبع، فتحة في نافذة التاريخ الخلفية، اتجهت مباشرة فوق الطريق الضيق المترب الوعر بحثًا عن الطعام، عن الأمان، عن...

جاءتنا نجاة بوعاء طعامنا، أحضرت الأطباق والأكواب فتوحدت للتو في داخل خيمة المكتب، ترابيزة الرسم والكتابة، توحدت بباقي إمكانياتها. استحالت إلى مائدة قرابين.

حاولنا أن نفصل أواني وأوعية فخار (المِرمْدِة) عن أطباق الميلامين.

دخلت (الأنثى) والقلة فوق راحتها، سطحها ينشع منه الماء، وحولنا الفخار القديم الجاف، والطعام، و.. حبات الخرز.. فماذا عن المسارج، عن الليل، والعالم السفلي؛ عن رحلة العودة إلى المطلق، وماذا عن..؟

فرغنا من الطعام.

رغبت في القراءة؛ مع التدخين، (إني أموت يا مصر، إني أموت) عنوان قصة (أبدايك) التي لم أحبها؛ التي لم أرتح لها من مجموعته الأخيرة (نساء ومتاحف).

.. هزت رأسها، بلفتة قلقة، متزنة، و.. لملمت أطراف ثوبها حول ردفيها، وقال: «ألست تريدني؟».

شكسبير؟ مَن؟ كليوباترا أن أنطونيو؟

.. «فتح عينيه، ليجدها «أنجريد» في حجرته المغلقة عليهما، في تلك الليلة، على الباخرة (أوزوريس) ،بينما يتألق القمر مرتعشًا على صفحة النيل، ليجدها قد جلست على حافة فراشه، فكان ثقل جلستها تلك في مواجهته؛ معادلًا لإحساسه بالفقد.

كان رسوخ ردفيها على حافة فراشه في الليل قد شرع يناوشه، وفيونكة حزامها أسفل خصرها؛ من الخلف، وفتحة ثوبها التي كشفت عن ظهر عنقها النزق، وقوس كتفيها المتين على هيئة هلال.. كانت عطشى كلها للملامسة!».

.. كان دور الطعام قد انتهى!

عند عودتنا، كان الحفارون قد استغرقوا في التدخين، حتى يجف عرقهم.. واتجهنا إلى الحفرة..

تحدث (أبدايك) أيضًا، عن الجعران (خبري) رمز الأبدية، لن نعثر هنا على جعران واحد.

كان أحد الحفارين في تلك القصة؛ وإن كنت لا أذكر نوع حفائره قد قال: «إن خنفساء الروث تلك (الجعران)؛ تظل تدفع أمامها؛ مثلنا؛ كرة روثها المستديرة الأزلية؛ كما ندفع أمامنا أيامنا».

- إن الحياة لا تزيد على كرة الروث هذه، ندفعها في جهد إلى الأمام؛ دائمًا!

ثم.. قبل أن نلقي بأعقاب سجائرنا؛ ظهرت الدفنة تحت المسكن، .. هيكل عظمي مقرفص، مستلق على جانبه؛ كالجنين في رحم الأم.. الرحم، المسكين المستدير. والمرأة؛ الخروج من قرص الشمس، ورحلة طويلة خلف كرة الروث؛ العرق، الحفّار الطويل الشاحب يهز المنخل في الهواء في حركة أفقية، يتسرب التراب الناعم إلى أسفل؛ يتشبع الهواء بالتراب؛ حركة نخل الدقيق...

وجدت على سطح المنخل حبات من القمح، كانت قد احترقت بفعل الزمن، ومنخل آخر، وحفنة تراب أخرى طَفْليّة هشة هذه المرة، اغترفها المنخل من أمام فم (الدفنة)، وحبات قمح أخرى؛ وحبات شعير أمام فم الميت.

الرأس إلى الشمال، والوجه يتجه ناحية الشرق؛ يستقبل قرص الشمس فور خروجه من الرحم؛ يستقبلها مدفونًا تحت المسكن.

نُظِّفت (الدفنة) بالفرشاة الناعمة الشعر، ثم..

وعاء منحوت من الحجر، وإناء للشرب؛ دفنة طفل، ودفنة امرأة تلتصق به، الأنثى لها صدفتان تربطان الحوض، تنفصلان عند الولادة (رأي للريس ياسين)؛ سيكتب في التذييلات؛ مقترنًا باسمك يا حاج..، الرجل له صَدَفة واحدة.

دفنة أخرى لحيوان، وقطعة صوَّان، وشظية قاسية، شظية جامدة من حجر الصوَّان القاسي.

انتهى تنظيف الدفنة الأولى، وتحددت معالم الهيكل العظمي..، فماذا عنها؟ «لا جديد» أو.. «راجع حفائر يونكر»! .. حاشية!

الفرشاة تنظف ما حول العظام الصفراء القاتمة.

تميمة. ثم تميمة أخرى..

تميمتان، بين أضلاع الدفنة المقرفصة؛ في وسط القفص الصدري.

التمَّت كل (الجعارين) البشرية، وأحاطت بالدفنة المحددة المعالم تحت المسكن.

تمت المواجهة قبل سقوط قرص الشمس خلف تلال الجانب الغربي.

.. في الليل داخل الخيمة «المستديرة» على سريري «السِّفَري» تذكرت «أبدايك»؛ قصته المستوحى عنوانها من صيحة أنطونيو وهو يموت مناديًا كليوباترا «إني أموت يا مصر.. إنِّي أموت». قد لا تريحني أغلب صفحاتها، لكن القصيدة..، أين هي؟

قمت، في الظلام، كان برد الليل شديدًا، وكنت أسمع صوت الريح في الخارج.

مددت يدي إلى حقيبتي تحت السرير. بحثًا عن تلك القصيدة، في الظلام، تذكرت شيئًا، البطاريّة كانت تحت الوسادة، أضأتها؛ وضعتها على الصفحة لأقرأ.. قبل النوم:

«الإنسان المصري العادي يواجه الموت».

.. إله التحنيط أنوبيس، برأس ابن آوي

سينتزع أحشائي في رقة

من داخل جسدي ويغمرها

في الزيت وملح النظرون

ويرطبها بدهان من الشهد، ومن دموع

الآلهة..

*

وستصبح روحي طائرًا من طيور الـ«با»

ستصبح طيفًا حر الحركة داخلا

وخارجًا من مسكني

المنقوش الجدران..

وإن لم يكن هرمًا

*

وفي محكمة أوزوريس

ستزن الآلهة قلبي

أمام ريشة «المَعَات»،

وفي حقول «إيارو»

تتعبد القردة لرع

وينبت الشعير

والجعران (خبري) إله الصباح الباكر

يُقبِّل القنوَاتَ الغارقة في الضباب

*

فلقد وضع (آتوم) الخالق

حاجزًا من الدخان، يفصل

الأشياء؛ بعضها عن بعض

على أن (النيل) الذي يفيض عبر الموت

لا يُسَمَّى سوى «عَنْخْ».. الحياة..

* * *

.. كان بقية إخوتي «الجعارين» قد انسلوا في دعة؛ فغابوا عني؛ على أمل اللقاء، فقرأت في غيبتهم،.. لي ولهم تسبيحة «أبدايك» هذه، عسى أن يتقبلها منا كلنا، كل من ورد ذكرهم في سياقها، فيتاح لنا (جميعًا) استقبال (مركب الشمس) عند بلوغها حافة الجانب الشرقي من أرضنا السوداء، في صباح الغد، فأذهب.. فنهب من التابوت، مشوقين إلى «تكرار الولادة»، ولادتنا، يكاد صبرنا ينفد.. إلى مواصلة الحفر من جديد.. ثم...

ارتفعت شيئًا ما تلك الأصوات التي أسمعها الآن لتعكر سكون ملكوت إله الصمت (أوزوريس).. فتصلني؛ بينما أتثاءب مجهدًا، كنقيق الضفادع.. ثم أخذت تبتعد، وتخفت، و.. أنا أتثاءب...

* * *

بار العزلة

تسربتْ إلينا كلمات قلائل، وصلتنا من روما القديمة، قال إن الحقيقة موجودة في زجاجات الخمر. وكنا قد أدركنا هذا طويلًا من قبل بحدسنا، وعلى هذا فقد قامت الكلمات الرومانية القديمة بدفعنا فقط. لملمت أطراف تهورنا الذي كان العرف الأخلاقي السائد، والإفلاس قد قاما بتهذيبه على مراحل، فاندفعنا من جديد، في تهور دام سنوات نحو (بار العزلة).

أنهكنا وعينا بحثًا عن الحقيقة المفقودة في باطن زجاجاته، حتى أسفر البحث الدائب للأسف عن عدم وجودها في ذلك البار أيضًا. ولما كنَّا قد أنفقنا أموالنا كلها حينذاك؛ ونضبت كل إمكانيات البحث عنها في بار آخر، بالإضافة إلى الملل الذي خرجنا به من تلك التجربة، والصداع، فقد اضطررنا إلى الانقطاع مؤقتًا عن البحث، على أمل استئنافه في أقرب فرصة ممكنة. نفضنا أيدينا من كل شيء، حتى تحديد موعد العودة إلى مقاعد البارات الخشبية المرتفعة غير المريحة، نزلنا عنه لإرادة النقود؛ التي إن هي جاءتنا؛ توجهنا خلفها تلقائيًّا إلى هناك.

وانقضت عهود لم يشر لنا في أثنائها دليل واحد باحتمال ظهور تلك النقود المرتقبة في الأفق الذي كانت تحجبه عنا التفاصيل، فاضطردت حياتنا باستنادها إلى دعامتين. أولاهما الأمل وهو مجاني، ثم التدخين، وقد استخدمنا صحوتنا النفعية بعد أن هجرنا الخمر في الحرص على ممارسته عن طريق استعارة السجائر من حين لآخر، واستغلال عنصر الخير القابع في أعماق نفوس البقالين.

حتى أسلمتنا رتابة التدخين، بالإضافة إلى تدلل الأمل علينا، حتى زهدناه هو أيضًا، وانقلبنا عليه،.. إلى حالة اقتصادية مريحة من حالات التوازن؛ لا يصحبها صداع؛ ولا يترتب عليها ندم على تبديد النقود فوق موائد البار.

ثم ناقشنا في غياب التوتر والعاطفية التي تسببها الخمر قضية الوجود، فاتضح لنا في هذه الحالة أيضًا، ضرورة الفعل المتعمد.

فاتخذنا في استرخاء هادئ قرارًا بالعودة إلى الشاطئ المقابل للانعزال.

وكان علينا أن نتعلم العوم؛ فكم بدا لنا ذلك سهلًا للغاية، وكنا قد توهمناه ذات مرة أمرًا مرهونًا باليقظة..

عيناها على عيني، أو على نظارتي.

ومن خلال نظارتي يمكنني أن أتأملها من تلك التي سبحت إليها.

فهل توقعت غير ذلك، عندما أدرت ظهري لشاطئ الانتظار؟

وهم!

أحسست لحظتها فقط بفداحة ثمن الاسترخاء.

لمحت وجودي المسترخي في لمعان عينها اليسرى المفتوحة في الليل تراقبني في أثناء نومها..

فأدركت في ومضة، عمق البئر الذي انزلقت قدمي بحافتها في لحظة هرب، فقط عندما ارتطم وجهي بقاعها.

كانت لها عين صناعية من الزجاج، هي عينها اليسرى المفتوحة لمراقبة وجودي في نوبة نومها.

أزعجني العنصر الصناعي في تلك التي سبحت إليها، وتحسست بأصابعي المرتعشة نظارتي الطبية في خوف؛ فوجدت شرخًا جانبيًّا تائهًا في زجاجها، عندما تفحصته.

بدأت بتوجيه اللوم إلى نفسي، حتى أحسست ببوادر الصداع، ثم دارت رأسي كالمروحة الكهربائية، فناقشت تلك الكلمات المقتضبة التي قطعت لنا بوجود الحقيقة في زجاجات الخمر وحدها، ولم تتعرض بشيء للمرأة، أو.. عينها اليسرى المتحجرة. أو نظارتي الطبية.

ألقيت كذلك بأعلى صوتي نصوصًا غريبة كاملة، واستشهدت في حديثي بآراء النقاد الأجانب، وبحثت كل التطورات الفنية التي طرأت على صناعة الزجاج عبر التاريخ. ثم تهورت فصوبت الأحجار إلى كل الفترينات الزجاجية التي لمحتها، فاختفت اللمبة، وتدحرج الفراش -فراشنا- وهو يهبط بنا المنحدر الغارق في الظلمة، وكان وقع حوافر الخيل يوقع لحنًا مملًا مفتعلًا فلم يعزني سوى اشتداد العاصفة، وأنّات

الأجراس المعلقة في رقاب الخيل، واستيقظت الفتاة الغريبة في فزع، اضطربت جدًّا، فتشبثت بعنقي في رقة، فاهتز ضوء القمر فوق العين اليسرى، واشتد وقع أقدام الخيل، فغطى على قرقعة العجلات الزجاجية، وكانت العربة تنطلق بنا فوق المنحدر، فتكاثفت الظلمة من حولنا؛ وتعالى عواء العاصفة حتى اختلط الأمر عليَّ، فلم يعد في مقدوري أن أقطع بوجود نظارتي الطبية معنا في العربة.

فهزمت في نفسي على أن أستسلم للتيار ليجرفني في عنف حتى ألتقي بضوء الشمس في حافة القاع.

فإما أن أسترد نظارتي الطبية..

أو يضع ضوء النهار الشامل حدًّا لشعاعات ضوء القمر التي ظلت تهتز فوق زجاج عينها اليسرى..

ولعل الحقيقة لم توجد مطلقًا في زجاجة الخمر، بل في التفافنا القديم حولها.

* * *

الجلباب الأبيض

أما أننا لم نكن مدعوين فقد حدث!! إلا أنه كان لنا الحق مع ذلك في أن تعتقد بأنه.. قد غُدر بنا..

ذلك أننا نسكن السطوح الواسع، كل واحد بغرفته، وللغسيل الباقي، ولسيد البواب، و.. خدم العمارة كلها، وباقي أفراد الشعب..

فإن كانت السيدة لابسة البالطو الأسود قد حلا لها أن تنظر إلى فوق، عندما طرأت الفكرة على بالها،.. فما هو ذنبنا، و.. لماذا نتحمل نحن ساكنو السطوح؟!

ولكن، لما كان (الصيوان) منصوبًا بالفعل، فقد قام في رأسنا أن نتنازل عن السطوح ليلتها (للبالطو) بمزاجنا!

وابتسمنا في عبط، ونحن نمر إلى باب السطوح، فوجدناه مغلقًا!

كان باب السلم بجواره، و.. لم تكن لنا رغبة في النزول مرة أخرى إلى الشارع، وإنما كانت رغبتنا على التحديد.. أن ننام!

ولمحتنا السيدة (لابسة البالطو)، فابتسمت لنا -اعترافًا بالجميل على ما نظن- ابتسامة آسرة، وأشارت بيدها في اتجاه ما.. فاكتشفنا بابًا لم نكن قد رأيناه من قبل..

دهشنا في الأول، ثم.. رأينا أن نعترف لأنفسنا بأننا لا نفهم شيئًا في فن العمارة، و.. دخلنا!

كان الطريق مسدودًا إلى غرفنا.

و.. أن تكون السيدة مهذبة، وتوزع ابتساماتها علينا، ليس معناه أن عقلها دفتر، مثبوتة على صفحاته أماكن غرفنا المرصوصة جنب بعضها فوق السطوح، ثم إنها كانت مشغولة تمامًا بما كانت تقول عنه إنه (البارتي)، فإذا كانت قد نصبت صيوانًا له فوق سطوحنا، فقد فتحت بابًا لذلك (الصيوان) بطبيعة الحال؛ لكي يدخل الزوار منه، و.. هو بابنا في الأصل ذلك الباب الذي فتحته على (الصيوان)، و.. هو كان مفتوحًا أيضًا من قبل، من يوم ما قامت العمارة نفسها، لكنها فتحته.. على المجهول، حشدت خلفه أشياء عديدة يومها، لا تسمح لنا أبدًا بالمرور إلى غرفنا، وادعت أنه (بوفيه)! و.. كان مستحيلًا إقناعها بعكس ذلك..

فكرنا في كل هذه الأمور، فوضح لنا في الآخر أن غرفنا لن تطير، وأننا إن ضحينا قليلًا من جانبنا وصبرنا، فسوف ننام طبعًا في الصباح؛ بعد انتهاء الحفلة. ولم يكن هناك أي حل آخر.

واستدارت ساكنة الدور التاسع إلينا، ثم أشارت إلينا، وقالت في سعة صدر: ما تتفضلوا!

دخلنا، ومثل القضاة جلسنا في تزمت، نحن المفلسين الأربعة صفًّا جنب بعضنا، فأحاطت بنا الأعين كأنها قضبان!!

كان الصيوان من الخارج مثل الشراع.. أبيض، ولكن التفاصيل والنقوش والألوان كانت تملؤه.. في الداخل.

أحسسنا بشيء يموت من حلونا..

ربما لأن (الصيوان) كان هو (نفسه)!

والإنسان -من العينة التي أمامنا- هو من يملك وحده، دونًا عن باقي الكائنات، أن يتجمهر، لين شفرة تقوقعه وذاتيته على صخرة الجمع، ليعجم أنانيته، ويدعم إحساسه المنعزل بنظرات الآخرين على نظرته.. عندما لا تهتز نظرته، أو تنفعل، ويصخب هربًا من حزن الصمت، ويترنح تحت وطأة الفرح، فيفقد توازنه، يحزن لأنه (يفقد)! وينسى أنه يحزن، ويموت لأنه ينسى، كل ذلك في وقت معًا.. وبنفس (الصيوان)!

ومثلما اختفى بلاط السطح تحت السجاجيد، استبدلت بالنجوم كلها نجفات أربع.

فإذا كان ثمة فستان ضيق، وحذاء من الألمونيوم، تحت البالطو الأسود الذي من الدور التاسع، فقد رأينا نحن المفلسين الأربعة أن أجمل الحاضرات.. كانت أم البلوفر الأخضر!

صغيرة لدرجة لا تحتمل معها أن تكون صاحبة حفل، وبريئة.. وكان بجوارها التخت.. مطرب، وعازف قانون عجوز، وضارب طبلة، وماسكة صاجات ذات خصر دقيق قلق لا يهمد!

لكننا كنا مع البلوفر الأخضر، فتسبب ذلك في أن تترك البريئة صاحبته مكانها، وتختفي من أمامنا!

وتهور، وهو كعادته متهور دائمًا، فقلم، وذهب خلفها، وطلب منها.. لسنا نفهم ما الذي طلبه منها على وجه التحديد.. لكنها رفضت! هذا ما استنتجناه، تركته واختفت! فوضح لنا أن مصطفى هو صديقنا لحظتها مثلما لم يكن في أي وقت مضى، وكنا نعرف هذا عنه بالطبع. فهو صاحب الغرفة التي على السطح كغرفنا!

ثم عادت ماسكة الصاجات، فرقصت.. حتى خرت على ساقيها الممتلئتين، فعادت إلى جلستها بجوار التخت، وتركت الصاجات لزميلتها. بدأ الدخان الأزرق يطمس تفاصيل السطح ونقوشه، وبقيت النجفات الأربع محتفظة بتجددهاإلى حد ما!

ثم دارت عيوننا تتعقب أثرها على وجوه الجالسات، وبدا لنا أنها لم تصل!

ولكن العازف العجوز القارح، وقف، ورد تحية الزبون بالعملة نفسها، وضحكت السيدات في نغم، ثم صرخ الرجال!

وانفتحت في بلاهة أفواه أصدقائي المساكين الثلاثة الذين كانوا قد بدأوا يتعلمون السهر مثلي!

وقام واحد، وطالب الراقصة المأجورة بالعودة إلى الميدان؛ نزولًا على الإجماع، فرفضت كل ما لم يرد في الاتفاق. وزعمت أنها متعبة!

ولما كانت بيضاء، رشيقة، ممتلئة الساقين، ولها حق الرفض؛ فقد بدا لنا أننا كنا قد وصلنا متأخرين!

ومرت لحظات تفكير!

بعدها قام شاب نحيف أصلع، وانحنى برقة على واحدة شقراء من المدعوات، وهمس في أذنها، فترددت، وقامت على الفور، ثم عادت بعد لحظات، وعليها جلباب رقيق أبيض له ياقة، وجيب فوق ثديها الأيسر.

مدت يدها إلى ذيل جلبابها، فارتفع قليلًا، وصفَّر المتفرجون؛ وتركت الراقصة البيضاء المحترفة ضحكتها، واتسعت عيناها؛ لما رنت الصاجات في أصابع الهاوية الشقراء!

دارت الشقراء حول نفسها، وطار الجلباب الرجالي الأبيض الرقيق من الخلف، طار في الهواء.. ثم هبط!

وعادت إلى مقعدها خجلة، رأسها منكس، تتلقى التهاني، وذراعاها مفرودتان، تمسك بكل منهما ذيل الجلباب من طرف، مثل طائر أبيض، وشعرها بقعة سوداء!

ابتعدت إلى الخلف بظهرها، وكان الدخان الأزرق قد بدأ يكتم الأنفاس.

إلا أن السجائر كانت مشتعلة، تبرق رؤوسها وسط الضباب. كل واحد بسيجارته، وكل واحدة!

وثبتت نظرتي على نظرة مصطفى، فتذكرت أم البلوفر الأخضر، التي تركت الحفلة غاضبة منا، وبدا لي فجأة أن لغضبها حكمة!

لها السماء، العصفورة الرقيقة، ذات الريش الأخضر، في قلب العاصفة، وقلبي معها.

وظهر سيد البواب فجأة، وقد تنكر لأصله، واعتبر نفسه لسبب ما، جرسونًا!

ولأنه لم يكن جرسونًا من قبل، رأيناه يميل على آذان الحاضرين والحاضرات، كما لم يفعل من قبل غيره من حملة الزجاجات؛ فحاولنا أن نفهم أنه يرتجل العمل مجاملة للبالطو!

ناديناه وهو يمر أمامنا، فابتسم في سعادة، ثم مال علينا، وزعم أن الحفلة قد بدأت الآن فقط في رأيه، ولما كنا لا نثق كثيرًا في إحساسه، لعلمنا بقدرته الخارقة على الجلوس كالصنم فوق الدكة من أول اليوم لآخره، فقد تجاهلنا ما قاله، وطلبنا منه أن يخبرنا نحن الذين نريد أن ننام بموعد هذا الصيوان!

فتغير لونه كأننا شتمناه، وزايلته سعادة البوابين، وابتساماتهم الراكدة، وتركنا غاضبًا -لأول مرة-، وبلا جواب!

ثم..

ارتفع الهتاف فجأة، ولمعت الأعين، واتجهت كلها نحو الباب.

دلفت الصغيرة ذات البلوفر الأخضر، والأعين حولها مشجعة متوسلة، وهي في الجلباب الأبيض.

جمدت نظرة مصطفى على عينيها، فبدا لي أنها اهتزت، ونكست رأسها.

ولكنها بدأت تدور!

فلكزت مصطفى، كما لكزني من قبل، وغادرنا المكان!

كانت العاصفة تدور بالداخل، والصفير ارتفع أكثر، والصرخات، وكان قماش الصيوان أبيض اللون من الخارج، وبسيط مثل الشراع، ومثل الجلباب! ولكن الفحيح مثل الصهد كان يهب من داخله لا يزال!

وأخذ الشراع يهتز، ثم هبط في الأعماق، وتهيأت لنا عشرات الرؤوس السوداء فوق السطح، تجأر بالصراخ والصفير والإعجاب!

ولكنها كانت في آذاننا أصوات استغاثة فقط، فانتظرنا تلك الأصوات، حتى هبطت.

وانتظرناهم حتى هبطوا، في حضن السلم إلى تحت! كل واحدة بعد الآخر في إعياء!

ونزل سيد البواب خلفهم، سعيدًا سعادة البوابين!

فلم يبقَ سوانا نحن الأربعة فوق السطوح.

فشرعنا في هد (الصيوان)!

* * *

سقوط قلعة الخيال

«قالت له إكسينيا، همست وهي تجمع أنفاسها، وأحس جريجور بارتعاشة جسدها:

– جريشكا، يا أعز من عندي، لنذهب بعيدًا عن هنا، سنترك كل شيء ونرحل.. لي عم يعمل حارسًا في مناجم بارومونوف، سيساعدني، وسوف نذهب فنعيش هناك معه؛ تعمل أنت؛ وأنا سأجعل كل همي أن أكون زوجتك التي توفر لك الرعاية والحب، سنعيش معًا هناك بعيدًا عن المتاعب، وعن ستيبان زوجي الذي سوف يصل فيفسد لنا حبنا، وعن أبيك الأعرج بانتاليمون بروكوفيتش.

استلقى جريجور إلى جوارها مفكرًا، وذراعه تحت رأسه، وعلى غير توقع فتح عينيه الآسيويتين المشتعلتين.. كانتا تضحكان ممتلئتين بالسخرية. وهو يحدق بها في النجوم التي تلمع في سماء تتارسك، قائلًا:

– إنكِ بلهاء يا إكسينيا.. بلهاء! إنكِ تتكلمين كثيرًا، ولكنكِ لا تقولين شيئًا يستحق الإنصات، أين سأذهب بعيدًا عن المزرعة؟! إن عليَّ أن أؤدي خدمتي العسكرية في العام القادم! لن أتحرك إلى أي مكان بعيدًا عن الأرض، هنا يوجد السفح، وشيء نتنفسه، أما هناك؟! في الصيف الماضي ذهبت مع أبي إلى المحطة.. كدت أموت.. آلات تزأر، والهواء

مثقل بالفحم المحترق.. كيف يعيش الناس وسط كل هذا الدخان، لست أدري.. ربما تعودوا على ذلك!

وبصق جريجور، وقال مرة أخرى:

- لن أترك القرية مطلقًا!

تركت الكتاب، وسرحت قليلًا في كلمات جريجور، ومنحته كريفي مثله تأييدي المطلق لوجهة نظره، وتمعنت قليلًا كذلك في موقف المرأة إكسينيا.. باعتبارها إكسينيا، أنثى، بضة؛ ممتلئة بالحيوية، والقوة، والرغبة التي كانت متقوقعة من قبل في رطوبة أحضان ستيبان، لكن اندلعت فجأة تحت أصابع جريجور المشتعلة التي تحسستها، ودماؤه التركية الصاخبة التي استوعبت تمامًا المرأة التي في إكسينيا. وأدركت فجأة أن الدخان لا يهمها، ولا يخيفها كما يخيف جريجور، بل ينقصها.. ليس فقط الدخان، بل الحريق ذاته لإشاعة الدفء في شتاء عمرها الذي أحبت فجأة على أبوابه! أرعدت الأنثى مع ستيبان، وبرقت، وأمطرت،.. فلم يبقَ سوى أن تصعق جريجور بشرارة رغبتها في الحياة!

رغبت في التدخين فجأة.. لا أدري لماذا؟!

مددت يدي المرتعشة إلى الكبريت، وفرقعت العود، وسحبت سيجارة بلمونت وددت أن أشعلها كشمعة في محراب الخصوبة من أجل خاطر إكسينيا، ولكنها طرقعت عندما أشعلتها، وتفحمت كعود من حطب القطن، وهو يحترق في كانون بيتنا الذي في البلد.. فتذكرت جريجور أيضًا الريفي مثلي، وقلت في نفسي بهدوء: يكون سعالي، وتعب صدري، وتزييقه طول الليل بفعل هذا النوع من السجائر، من أجل خاطر

جريجور، المحب مثلي للريف، والنهر والحصاد.. النقي الذي لم تلوثه المدينة بعد، ولا الدخان، ولتكن حياتي المشتتة في المدينة، وإدماني للبلمونت، وصدري المتعب فداء لروحه الريفية الفسيحة المخضرة، وبدائيته.

ورحت في سكون حجرتي المغلقة، أتخيل النهر، وبذور عباد الشمس، وماكينة الدراس، ونهرنا، وبيتنا الذي في البلد، وشجر الصفصاف والكافور والأعين الريفية العميقة المبتسمة، والقلق الذي في المدينة، والزجاج، والوجوه الشاحبة، وشارب جريجور، وتذكرت الكاتب نفسه، وأنا أتعجل تقليب الصفحات باحثًا في فضول عن المشاهد التي تدور أحداثها في القرية، لا توقف عندها، وتهزني صفحاته دائمًا عندما تعود بالقوزاق من الحرب في كل مرة.. فأعود معهم إلى القرية.. إلى قريتنا، إلى بيتنا، ومكنة الطحين، وأعمدة التليفون، وشواشي الأشجار، ومياه الفيضان الحمراء، وقرص الشمس البرتقالي، والسواقي. وفروع أشجار شعر البنات المتشابكة المتدلية تكنس ماء النهر، والتيار يلعب بها، ويجرفها، وتطيعه.. لكن في حدود، وتبقى دائمًا في مكانها.. كل فرع مشدود إلى أصله، مرتبط بشجرته الواقفة في الطين.. يمتصها، ويعاكس الماء، ويحجز خلفه فوق ماء النهر، أكوامًا من القش، والعصافير، وبقايا الدريس، ويهمس للجذور في دفقات الموج، ويوشوشها في تلاعب الدوامات.

تذكرت الكاتب، وشاربه هو أيضًا، وقلنسوته المصنوعة من الفرو، وعزلته في بيته الريفي، وتذكرت كلمات كنت قرأتها له، يتعجب فيها

من الناس الذين يعيشون في المدن، ويندهش لحالهم، ويسخر بالفنانين منهم خاصة، وقد اعتبرت تعريضه ذاك ماسًّا بي على نحو ما، لأنني غالبًا ما أخرج بعد عودتي من العمل لأرسم الناس، أو أقف إذا كنت متعبًا في النافذة، وأرسم الشارع والعربات من داخل حجرتي.

كيف أجد الوقت؟!

انتهت السيجارة، وعدت من تأملاتي مرة أخرى إلى الصفحات لأجد الجنرال القصير كورنيلوف قد فتح جبهة ثالثة أمام القوزاق، وأعلن الحرب فجأة على كيرنيسكي والحمر في وقت معًا.

وكنت أثناء قراءتي أحاول أن أتخطى كل ما لا يدور في قرية تتارسك نفسها، ولقد مررت بسرعة على الصفحات التي تعرض خطط التاجر موخوف، وأسلوب عمله في الطاحونة، وعلاقاته بعماله، وكيفية نمو ثروته، لكي أصل ما أمكنني إلى تتبع سير الحياة تحت سقيفة الفلاح القوزاقي الأعرج، وتعقد مشاكل الحياة اليومية، والعمل، وصيد السمك في الفجر، ومواسم الدراس، وحفلة زواج جريجور بكل تقاليدها الريفية القديمة الممتعة، وتقسيم المراعي، والولادة، وحلب الأبقار، وتتبع نساء مثل داريا، وإكسينيا، وناتاليا، وتأمل عواطفهن المتباينة، وسلوكهن في الحياة!

لكن كورنيلوف فتح جبهة ثالثة فجأة في الحرب الدائرة مع ألمانيا لحسابه الخاص ضد كيرنيسكي، ودفع القوزاق المنهكين الجوعى، وخيولهم الشاحبة المترنحة نحو قصر الشتاء.

وفي الوقت نفسه بدأت ترتفع أصوات الحمر بضرورة الحرب

الأهلية في الداخل، ونفي الحداد من قرية تتارسك إلى سيبيريا، فظهر على الفور بونتشك بدلًا منه في صفوف الضباط.

وعاد الضابط القيصري ليستنسكي من إجازته التي قضاها في ضيعة والده العجوز التي تمتد على مساحة عشرين ألف فدان، عاد ثانية إلى الجبهة على حصانه، تاركًا وراءه إكسينيا التي كان قد ورثها بعد رحيل جريجور، ليسير مع جريجور نفسه الذي كان قد أصبح ضابطًا هو أيضًا، جنبًا إلى جنب خلف كورنيلوف.

وتهاوى ستيبان وحيدًا برصاصة كومته في أحد المستنقعات على أطراف الغابة، وصرخاته اليائسة تعلن تمسكه المريب بذلك النوع من الحياة.

واضطربت الأمور جدًّا، فأخذت القطارات المحملة بالخيول، وبالقوزاق تتحرك في كل اتجاه.

وبدأت الخطط تتشابك، وتضطرب و..

ارتفع فجأة صوت مزعج كئيب، متواصل.. فسقط الكتاب من يدي.. وقمت مضطربًا، وأنا أتصور أن القوزاق والألمان قد وصلوا إلى مسكني.. وقفوا أمامه، وضغطوا أصبعهم على الجرس، حتى أفتح لهم.

مددت يدي ثانية، وأخذت الكتاب، أحتمي به لآخر لحظة من الخطر الذي أحسست به يتهددني فجأة، وفتحت الباب مستسلمًا لأجد أمامي أربع نساء، وبضعة أطفال، وتغير سير المعركة بطريقة نهائية.

* * *

جلست النساء الأربع في الصالة في انتظار وقور صامت، يليق بسيدات أربع مثلهن سعيدات للغاية بحياتهن وأطفالهن الذين كانوا قد اندفعوا فورًا إلى حجرتي الداخلية، ومن ثم أقعوا فوق أرضها، وبدأوا يعبثون بكتبي وملابسي ورسومي، وأدواتي، ويقلبون وحدتي النفسية المرتبة في عناية فوق الأرفف، وجنب الجدران.. إلى أوراق متناثرة مضطربة. تنتشر وتتطاير في الهواء.

وارتفع صياحهم من الداخل. وتحول إلى مناقشات حادة مختلطة، ونظرت بإحدى عيني المجهدتين إلى الداخل، إلى حيث كانت قد بدأت المذبحة الصبيانية تدور لتسفك دماء ذاتي المستوحدة القابعة في حجرتي الداخلية، لأجد رسمتي الأخيرة متوترة ومشدودة لآخرها تكاد تتمزق بين قبضتين صغيرتين، بينما طفل ثالث قد أشرع فرشاتي في الهواء مبلولة يقطر منها الحبر الأسود فوق بلاط الحجرة منتظرًا في قلق، بقبضته المرفوعة بالفرشاة؛ أن تهبط الورقة ثانية على الأرض، حتى يتمكن من القيام بإجراء التعديلات اللازمة التي يراها.. فقمت مندفعًا في خوف إلى الداخل كالمجنون!

وصاحت خلفي واحدة من النساء الأربع اللائي في الصالة، قائلة في عتاب غاضب:

- سايبنا ورايح على فين؟!

قلت مرتبكًا: العيال.. يفرحوا بحاجة كده!

وعدت بعلبة السجائر، ومشط الكبريت من الداخل، ودفعت أمامي كل الأسرى التتار الصغار، قبل أن يتمكنوا من تخريب الحجرة الداخلية

التي تخصني، بعد أن تمكنت من استخلاص الأوراق من بين أيديهم في جهد، وصرفتهم عن نظرتهم المغولية المبكرة المستهترة تلك إلى النشاط الإبداعي الداخلي، ببعض المكاسب الدنيوية الصغيرة التي كنت أحتفظ بها لأمثالهم في أحد الأدراج.

تفتحت عينا امرأة مكحولة من الجالسات، وقد فشل كل تصنعها في إخفاء سرورها الداخلي للمعاملة اللائقة التي كان يجب على أمثالي، ممن لا قلب لهم، أن يعاملوا بها منذ البداية أطفالها.. عاطف، وحنان، ولست أعرف اسم الثالثة، كما فشل كل وقارها المتصنع أيضًا في إخفاء دهشتها للنحو الرقيق الذي اضطررت مرغمًا في النهاية إلى أن أبدو به في وجودهن، على نفس النحو الذي كان قد فشل فيه وقارها المتصنع كذلك في إخفاء احتفائها، وعنايتها الشديدة بجلدها اللامع النظيف المتألق، وظلت تنقنق في صوت دافئ مؤنث:

- ليه بس كده.. كتر الحنية يخسر العيال!

من أين لي في هذه اللحظة بالعجوز الحاقد القديم «شوبنهور»، ليرى بنفسه -حفظ النوع- الذي طالما تحدث عنه، متمثلًا في تلك المرأة، التي كانت حربًا أهلية واسعة النطاق قد نشبت منذ عام بتهمة قسوتي الشنيعة السوداء، وعدم اكتراثي بأطفالها، لتنقض متهجمة على أعصابي فجأة في النهاية، وبلا دعوة، في موكب على هذا النحو النسائي المحتشد، الذي لا يعينني على مواجهته، ولا تنفعني فيه فرقة كاملة مضادة للنساء من أمثال شوبنهاور، موجودة إلى جانبي في التو واللحظة، لا مجرد كتبه الكئيبة الغامضة وحدها، المتناثرة، التائهة لا أدري أين؟!

إلا أنني سرعان ما تجاهلت ذلك الشخص السلبي «شوبنهور»، وعاودني الهدوء فقط عندما مرت ببالي تلك القبضة الرهيبة التي سددها ستيبان المخدوع إلى وجه إكسينيا المستدير، والركلة العنيفة التي تبعتها حاملة تلك المرأة البضة عبر الممر، ثم باب حجرة النوم، الذي انفتح، وارتطم بالحائط، لتندفع من خلاله كالقذيفة، ومن ثم تتكوم في النهاية تلك الأنثى المزعجة تحت حطام الفراش، ورغم أن ظلالًا خفيفة من الشك كانت قد أخذت تتكاثف فوق حقيقة تلك الحادثة التي في الرواية، وتكاد تبعدها عن التصديق والواقع، وتشير بأصابعها المريبة نحو الكاتب ذي الشارب الكثيف، والقلنسوة المصنوعة من الفرو، وتتهمه بالتهويل، إلا إنني كنت متشبثًا بها لحظتها، وأنا أنظر في وجوه النسوة الأربع، والمرأة المكحولة البيضاء المستديرة الوجه بينهن تذكرني بالأنثى المزعجة الوحشية إكسينيا، وتدفعني إلى أن أقدر قوة الحقد المقدس، الذي كان قد قام في نفس ستيبان، وأن أتعاطف معه. ولا أستبعد صدور مثل تلك القبضة الاستثنائية المريعة عنه في لحظة غضبه الوحشي النادرة، وهو يعود ليرى شرفه المطعون، والدماء تنزف منه بلا توقف، ذلك النزيف الذي كان يتمثل في ثرثرة إكسينيا وتبجحها، وهي تستقبله قائلة له على الفور: «اضربني»، وهذا يعني أنها تعترف منذ اللحظة الأولى بلا حياء، دون أن تكلف نفسها حتى مشقة الإنكار.. ولقد سدد ستيبان بالفعل إلى وجهها الحيواني تلك القبضة الرائعة، ومن ثم أتبعها على الفور بتلك الركلة الصاخبة التي أثلجت صدري، وكم كنت أود لو أنه قد كان معي الآن.

– اللي واخدة عقلك تتهنى به!

سخرية مني هذه الكلمات بلا شك! ويُفهم منها كذلك أنني كنت سارحًا، وهذا لا يصح في وجودهن! ثم انفتح فمي في دهشة، وأنا أُحدِّق فيها بعيني.. كانت منزويةً في الركن، لكنها رغبت فجأة في أن تلفت نظراتي القصيرة نحوها، بعدما توهمت أنني أتجاهلها، وتدخلت السمراء التي في الوسط، تشرح لي ما أحست أنني لن أفهمه وحدي مطلقًا. قالت:

– أصلها بقى كانت عاوزة تشوفك. وبعدين.. أصل انت ما بتجيش!

قمت واقفًا دون أن أدري، ثم دسست يدي في جيبي باحثًا عن السجائر، فلم أجد سوى مشط الكبريت.

قالت المرأة الأخيرة الباقية، التي لم تكن قد تكلمت بعد، عندما رأت مشط الكبريت في يدي:

– متعملش حاجة والنبي.. اقعد.. احنا جايين نقعد معاك حبة!

فردت عليها البيضاء المكحولة المستديرة الوجه، بدلًا مني قائلة:

– ما تكسريش مجاديفه، أحسن ياخد على خاطره منا.. اعمل يا اخويا.. اعمل لنا شاي!

قمت..

وفي المطبخ جاءتني فكرة، وأنا أحاول إشعال الوابور، أوشكت أن تجعلني أتراجع في عمل الشاي الذي وجدتني فجأة أقوم بعمله، دون أن أقرر ذلك بنفسي، وهب الوابور، واندفع خيط رفيع من الجاز في الهواء، ففتحت النفس، ثم ربطته، وتركت الوابور يسخن، وبدأت في غسل

الصينية والبراد والأكواب، وارتفعت الضحكات الأنثوية، ورنت في أنحاء مسكني الواجم الممتلئ بالكتب والأتربة والرسوم، وعاد الوابور فهب ثانية، وارتفع الدخان واللهب، ففتحت النفس ثانية، وفتحت شباك المطبخ الضيق المحدد بالقضبان، حتى يخرج الدخان، فلمحت وجه المرأة البيضاء الشابة التي تسكن قبالتي من خلال المنور، واقفة في شباك مطبخها من وراء القضبان التي تحده هو أيضًا.. قلت في نفسي وأنا أحدق في وجهها.. هكذا يجب أن تظل النساء بعيدًا.. يفصلهن عنا منور سحيق، وقضبان تحتجزهن خلفها حتى نتمكن من القراءة أو عمل أي شيء نافع، سوى الشاي الذي أقوم بعمله في هذه اللحظات التي أظل أترقبها بعد عودتي من العمل؛ كي أخلو فيها إلى نفسي في حجرتي الداخلية، وأربع من النساء التقليديات الشرقيات الفارغات لأعمال البيوت وحفظ النوع، ينتظرنني حتى أحمله إليهن، ليحكمن بأنفسهن عليه.. تلك المخلوقات البشعة، القصيرة السيقان، الضيقة الأكتاف، العريضة الأرداف، الفارغة العقول، كما قال عنهن شوبنهور بحق، وكان قد نسي أن يقول: اللائي لا يفهمن معنى ضياع الوقت بالنسبة لشخص مجهد مثلي!

كنت قد قرأت عن شبنجلر، أنه هو الذي قال إنهن الزمن نفسه، وهن الوقت، والطبيعة، والتسعة أشهر، والتكرار، والتلكؤ، والانتظار الذي هو غاية في حد ذاته. فلا يفهمن معنى الوقت!! لكن.. هل ذكر أحد أبدًا، شبنجلر كان أو غيره، أن عليَّ أنا أن أصنع لهن الشاي؟!

ضربتُ الوابور فجأة بقبضتي، فاندلق البراد في قلب الحوض، وتحطمت بعض الأكواب، واختلطت الأمور في بعضها البعض،

وركلت بعض الأوعية بقدمي أيضًا في صخب لا بأس به، وعدت إليهن! جلست.. ثم بعد ذلك، قلت في برود:

- واحدة منكو تعمل الشاي، انتو تفهموا الحاجات دي أكتر مني!

قالت لي ذات الوجه المستدير الأبيض، والجلد الناعم اللامع، والعينين المكحولتين:

- اسم الله عليك! أمال مين اللي بيعمل لك الحاجة؟!

وقالت السمراء الممتلئة مسرعة، وقد بدا لها وحدها على ما يبدو شبح وابور الجاز، ومزايلة جلستها الهادئة المسترخية:

- بلاش.. ما قلنا بلاش!

دخلت حجرتي الداخلية، فأخرجت منها أولاد تلك المرأة، وعثرت وسط الفوضى التي حدثت لي بداخلها على السجائر.

أشعلت واحدة، وجلست، ثم وضعت ساقًا فوق ساق، وحدقت أخيرًا وأنا أسعل، وأملأ المكان بالدخان، حدقت في وجوهن، وكنتُ في المفاجأة، وفي ارتباكي ساعة وصولهن قد نسيت أن أحدق في وجوههن كذلك منذ البداية. وأن أتفحصها وأفهمن.. لا أدري كيف؟!

اكتشفت أن تحديقي فيهنَّ على هذا النحو يدخل في نطاق بعض الأمور القليلة التافهة التي يفهمنها، فقد قالت البيضاء التي ساهمت في حفظ النوع، بعاطف، وحنان، وابتسام، هؤلاء الأوغاد الثلاثة الذين لم يحافظوا على أي شيء في غرفتي.. قالت، ولوحت بيدها في اتجاه ما، ورنت الأساور: «أصل كانت عاوزة تشوفك بقى، ما انت ما بتجيش!»،

ثم أضافت قائلة: «والنبي شوق هي اللي فكرتنا، أصلها مسافرة بقى لجوزها الكويتي.. كانت هنا بتولد، وراجعة (تحج) تاني.. جابت نشوى، عقبالك كده، قوموا بينا بقى»!

لم أتكلم.

كنت قد فهمت كل شيء.. سبب الزيارة المفاجئة وكل شيء، فلم أتكلم! قمن، فأغلقت الباب خلفهن.

ظللت حزينًا واجمًا للحظات، ثم قررت أن أصنع كوبًا من الشاي لنفسي، ومن ثم أسحب سيجارة، وأدخل بها الغرفة من جديد.

بدأ الوابور في الوَش! والناشئة «شوق» بدأت تنتج.. بدأت في حفظ النوع!

كانت ناتاليا «في الكتاب»، قد جاءت بطفل من جريجور هي الأخرى أيضًا. فماذا حدث للكون، سوف نرى، في الرواية، بعد أن أعد الشاي، وأحمله إلى غرفتي، وأسحب السيجارة. سوف أتمكن مرة أخرى من التفكير في ذلك الأمر.. وسأتتبعه بالطبع في قلب الصفحات! إن كانت ناتاليا قد توهمت يومًا أنها تحفظ نوع جريجور، فإن كورنيلوف يتلفه لها بالتالي، بحروبه التي لا تنتهي.. لم أصل بعد إلى نهاية ما.. والرواية طويلة على كل حال.

انطفأ الوابور. فارتفع جرس الباب بدلًا منه.. وذهبت لأفتحه، لا بد لواحد أيضًا من ضمن النوع!

إلا أنني لم أجده كذلك عندما فتحت له الباب، كان واحدًا من نوع

آخر.. زميل لي رسام، ولكنه محترف. لم أكن منذ سنوات قد رأيته؛ لمشاغلي أو مشاغله. أو لست أدري على وجه التحديد لماذا؟ المهم أنني لم أكن قد رأيته منذ وقت بعيد! وحتى عندما كان يحدث لي أن ألتقي به قبل سنوات، فإن ذلك كان يحدث بالصدفة في مكان ما. ونتبادل كلمات قليلة في الغالب، لا معنى لها. وربما لا داعي لها أيضًا. إلا أننا كنا نقولها.. فليس ثمة علاقة قد ربطتنا حقيقة ببعضنا، ولكننا كنا أنا وهو نرسم، على نحو ما.

وكنت قد تمكنت أخيرًا، من أن أقبع طوال الوقت في حجرتي الداخلية، وتمكن هو من أن ينجو من مثل هذه الوحدة، وانطلق بعيدًا في المجتمع.

أخذته الحياة والدنيا من غرفته الداخلية الخاصة به، فجاء الآن على ما أحسب بنية الدخول إلى غرفتي.

ووجدتني مضطرًا إلى أن أقول له:

- اتفضل!

تقاسمنا الغرفة، والشاي، وسجائره، وسجائري... ومد يده فجأة إلى الرسوم! لست أدري لماذا انزعجت، ورحت أمنع نفسي من محاولة منعه من مواصلة ذلك العبث، إلا أنني لم أتمكن من ذلك.

لم أكن أحب أحدًا أن يجيئني من الصهد الذي بالخارج، والضجيج، بنية الدخول إلى غرفتي الداخلية. ومن ثم يبدأ على الفور في العبث بأشيائي.

لست أحب من الأطفال الذين لم يتذوقوا بعد طعم حياتي المر، أن يفعلوا ذلك معي، وقد صرفتهم عن ذلك منذ قليل، ببعض النقود.

ولست أحب حتى من الرسامين كذلك أن يعبثوا بي على نفس النحو، إلا أنه ماذا يمكنني أن أفعل معه، حاولت أن أتصنع اللا مبالاة، رغبت في أن أبدو عبيطًا للحظات، حتى أتمكن من فهم أو.. أتأكد -على وجه الدقة- من فهم سبب هذه الزيارة الطارئة هي أيضًا. قلت في محاولة خبيثة لاصطياده، تقطر براءة في ظاهرها، وأنا.. لا أزال أود أن أتأكد من سبب مجيئه الأبعد غورًا: «خير!».

لم يردَّ على الفور، كان منشغلًا بالتدخين، وكنت أدخن أنا -أيضًا- فيتصاعد الدخان الأزرق إلى أعلى. لكن الحريق نفسه لم يكن بعد قد اندلع.

وراحت أصابعه تتحسس مواقعي الداخلية، وتمتد إلى كل قلاعي في فضول، وتجوس خلالها، فتقوقعت كل القلاع التي بداخلي، وانغلقت على نفسها، فلم تلتمس أصابعه سوى الأسطح، وحبال الغسيل المتوترة، المشدودة. وازدادت بداخلي الرغبة في مواصلة العبط.. حتى اطمأن زميلي الرسام للغاية، وفجأة.. كشفت الغطاء عن أحد الأسئلة النائمة.. عن وجهه الصريح الوقح. قلت: «جيت إزاي؟!».

سألت: «ليه؟».

كان السؤال صريحًا مزعجًا، ومفاجئًا أيضًا، في وسط الجو الوردي الذي أراده هو أن يقوم بيننا، حتى يسهل عليه خداعي، إلا إنني كنت متربصًا، ومغمض العينين، ومتحفزًا في يقظتي المريبة، فخرت إجابته

صريعة فوق الأرض، تنزف في وسط ذلك الغموض الذي أقمناه فجأة، أنا وزميلي العزيز، الذي كان قد اختارني من دون كل الناس في تلك اللحظة، ليشن فوق قوقعتي هجومه الغريزي الخاطف.. ليفاجأ بالاستحكامات التي كنت أقمتها تحت ستار الدخان دون أن يدري، وفي وسط الحصار والكاموفلاج، قال لي للأسف صديقي الذي يحبني ذلك الحب العقيم الغامض:

– ما بنشوفكش، فاضطريت آجي، أشوفك بتعمل إيه؟!

قلت:

– اضطريت ليه؟!

قال:

– يعني.. عشان أعرف!

– لازم تعرف؟!

– طبعًا.. مش احنا أصحاب؟!

– آه.. فيك الخير!

زميلي يريدني أمامه دائمًا.. في الصراع، لكي يعجم عودي باستمرار، ويقارنني بنفسه، وأنا كنت قد تعبت من سنوات الصراع الطويلة الماضية، فابتعدت عن أرض المعركة، أستريح قليلًا في الظل.. في داخل غرفتي، اضمد جراحي، وأصلب عودي، أو أمدده، كما يحلو لي.. وأريحه قليلًا من بعد طول العجم.. إلا إنه حتى ذلك لم يكن مسموحًا به على ما يبدو وفقًا لقواعد اللعبة، التي كانت تدور في حركة جنونية محمومة، وامتد

نحوي حماسها المخبول رغم حرصي على التباعد، وأصابتني إحدى شراراتها بعد أن تعقبتني حتى داخل المخبأ، فوجدتني مجبرًا على الدفاع برد فعل غريزي من جانبي أنا أيضًا، فانتصبت على نحو معاصر، مختلف قليلًا في الشكل لكنَّ رجليَّا كانتا مغروستين في طين المخبأ، تغوصان في المستنقع الذي نشع من قديم، عبر الجدران الأخلاقية الحالمة المتأملة، أرتعش من الوحدة، ورطوبة المياه الجوفية، لكن أشارك من خلال الفوهة المفتوحة في أعلى نحو السماء.. في صد الحملة.. الحملة القديمة، منا ولا (أحمس) كل ما استطاعت يداي الضعيفتان المرتعشتان أن تصلا إليه من الخناجر والسكاكين.. حملت له العجلات الحربية فوق كتفي كذلك إلى خارج الكهف، ومن ثم أقمت المتاريس واختبأت خلفها، وعندما سقط (أحمس) في الميدان، وجاءتني صرخاته الأخيرة، ورنت في الداخل، وتضخمت حتى لم أعد أقوى على مواصلة الصمت، وتأكدت من نهايته.. خرجت مضطرًّا، ومحكومًا عليَّ بالحرب التي لم أعلنها، ومستفزًّا أيضًا.. أضيف مشاركتي المتواضعة. وجهدي.. أضمه إلى جهود المرحوم (أحمس). لسد الثغرات التي كان قد سقط قبل أن يتنبه إلى وجودها.. والتي ظل الهكسوس أو التتار لا أدري يتدفقون من خلالها.

وأفقت فجأة.

خرجت من داخل المخبأ، وتقدمت نحوه لأسمع كلماته الأخيرة عن قرب، فوجدته قد جمع في حجره، كل الأحجار التي كانت قد فرشت أرض المعركة القديمة خلف ظهور التتار الفارين، وتحت كعوبهم، وبدأ

يرجم بها أعمالي ورسومي التي لم أدعه مطلقًا لنقدها.

قديمًا كنت أنفعل، وأنطلق نحو الحائط الحجري، أدقه في عصبية، وأقول كلامًا محمومًا، لا يوافقني في برود مصنوع أحد عليه مطلقًا.. لكن الأيام مرت كعادتها دائمًا، فحصلت على نصيبي من البرود المصطنع بدوري أنا أيضًا، وتخليت نهائيًّا عن العبط.

قلت له كلامًا باردًا مما اكتسبته في سنواتي الأخيرة، وبطريقة محنكة، دون انفعال ولا أي شيء، مما كان يتوقعه.

كنتُ وأنا أحدق في وجهه قد أدركت بوضوح، لخبرتي الماضية أن زميلي قد نجح في الدنيا التي كان قد شد رحاله إليها منذ سنوات، يبيع أحلامنا التي تبدت بها صورة حياتنا الريفية الأولى، ويشتريها، وتتسبب بها مطالب دنيوية صغيرة لا تنتهي.. ومن ثم جاءني يعرض أمامي عاهاته التي دستها الدنيا خلسة في كفه، علمني أن أموت كمدًا، أو أتلوى خارجًا من غرفتي الداخلية، منسحقًا في الصهد خارجها تحت أقدام ريادته.

لذلك كان واثقًا على نحو وقح من قدرته على نقع بذور الحسد في داخلي، وواثقًا كذلك من سهولة تحطيم مجاديفي، على رأي تلك المرأة التي كانت هنا منذ قليل، برأيه المتطفل في أعمالي، التي ما عرضتها عليه.

أضفت لنفسي فوق ذلك ما أحسسته ولم أقله له، أو لأحد!

وتذكرت تلك الكلمات التي كان ذلك الريفي، من قرية (فونتمارا) الإيطالية، قد قالها للثعلب أو (المهندس المزعوم) على لسان أحد الفلاحين. تذكرت الكلمات التي كتبها ذلك المحارب، الذي كان قد

أخذه الحماس فراح يجمع الطوب في بداية هذا القرن مقتفيًا خطوات غاريبا لدى الذي كان قد سبقه في الزمن، ويعاونه، بفرحته الريفية التي لم تتم، في تصويبه إلى ظهور وكعوب تتار إيطاليا أيامها، قائلًا على لسان الفلاح (دانييل):

«إن مجتمعنا الراهن قد قام كليةً على أساس انفصال وصراع كل إنسان ضد الآخر.. كما أن الأشياء المادية قد أضحت الآن هي التعاويذ، والرقى السحرية، والآلهة التي يجب على الإنسان أن يركع تحت أقدامها! وإن كلًّا منا إنما يرحل في قطاره الخاص به، رغم أننا نسير كلنا على نفس القضبان»..

وملأني إحساس بالجفاف والملل.

كان ذهب العصور الوسطى وفضتها تم اختفاؤهما أخيرًا، وعز وجودهما في عصرنا المحروم، المكسور الخاطر، فوجبت عبادة الصاج والصفيح.

تذكرت النساء اللائي كن هنا منذ قليل ينقنقن باسم الأدوات المنزلية الحديثة، ويسبحن بحمدها على باب حجرتي، ويعددن فوائدها التي ينبو عنها الحصر، وكأنها أصنام. آخر مودة من الأصنام.. ويدرن في كل مكان يستعرضن ملابس قريبتهن الصغيرة التي تزوجت أخيرًا أحد الكويتيين العواجيز الأثرياء، وسعادتهن التي فاضت عن بيوتهن الصغيرة المحدودة، بتلك الملابس الأجنبية الهفهافة، فأخذت تنصب في كل مكان، حتى في داخل حجرتي، يلوحن لي أخيرًا بكل شيء، ويعرضن أمامي انتصارهن التام، أنا المفلس، السارح دائمًا في أشياء مريبة غامضة،

لم تنفعني في جمع المال، ولا هي حتى أكسبتني تأييد أحد، حتى يأسف من أجلي على أي شيء.

كن سعيدات للغاية أولئك النسوة بأطفالهن، وطبيخهن، وأدواتهن المنزلية، وحظهن من الحياة، وأنهن قد نجون على نحو غريب لا يبعث على الراحة رغم ذلك، ولم يزايلهن حتى في ضحكاتهن المخبولة. لهذا كان يتثاءب الخوف المقلق، ويتمطى في قلب الضحكات الهستيرية المخبولة. مختلطًا بالدلال المذعور الذي فقد اتزانه وسحره، واستحال تشويقها، وجروحًا عميقة مزمنة، تنبثق من غورها الرغبة في التباهي، فجئن إليَّ، يفضن بعضًا من فرحهن الوحشي بالحياة، وينثرن بضع ضحكات قليلة مؤنثة في أنحاء مسكني العقيم!

فمَن جاء بذلك الشخص أيضًا؟!

ارتفع فجأة جرس الباب.. فتحته، فدخل أخي، وجلس بيننا!!..

كان قد اعتاد في الأيام الأخيرة أن يحضر لزيارتي من وقت لآخر، فيجلس صامتًا، ويظل يتحرك فوق المقعد في قلق، وفجأة يهب واقفًا، مرتبكًا، مبديًا رغبته في الانصراف لأعماله.

وفي كل مرة كنت ألح عليه.. أن يدعني أفهمه، أو أضع أحد أصابعي مرة واحدة على الأقل فوق وجوده المرتبك المتوتر الذي يحزنني، فلم أفلح، ولا في مرة!

ويعمل أخي ذاك الذي يصغرني بسنوات بإحدى الشركات، إلا أن له إلى جوار ذلك أعمالًا لم يدعني أفهمها أبدًا، رغم أنني كنت قد تمكنت

من رؤيتها في وجهه، عندما كنت أراه شاحبًا دائمًا في كل مرة، ومرهقًا، وحزينًا، وعيناه مجهدتان، متغضنتان، تائهتان، متلفتتان في اتجاهات جغرافية جديدة لم يكتشفها أحد سواه بعد.

فكنت ألح عليه أن يبقى قليلًا في انتظار الشاي على الأقل، وكان يبقى أحيانًا، حتى أقدم له كوبًا ساخنًا من الشاي، فيدلقه في جوفه، وهو لا يزال يغلي كما هو. ومن ثم يذهب إلى الحنفية ليضع فمه تحتها، وتنتقض عروق رقبته الهزيلة، كحصان قديم قد جر الدنيا كلها خلفه، صاعدًا بها، قبل اختراع الظل والليل والنسيم المنعش، وأيام الجمعة، إلى قمة خرافية متهورة شنيعة الانحدار.

فكنت أحس في كل مرة والأسى يملؤني أن أخي الذي يصغرني بسنوات، قد فقد إلى الأبد كل شعور قديم بالسخونة والبرودة، وكل شيء آخر تقليدي قد عرفناه من قبل، وأن الأشياء قد استوت أخيرًا في نظره، استواء رائعًا، على نحو مفجع.

ثم يدفع فمه فجأة أخيرًا من تحت الحنفية، ويستأذني في أدب غريب عليه أن أدعه يذهب لمباشرة أعماله.

فلا يسعني في كل مرة سوى أن أفعل!

إلا إنه حتى هذا الشخص، أخي الذي يصغرني بسنوات، هو أيضًا، بعد ما يذهب لا أفهمه! فأظل أدق رأسي في حائط الشرود، محاولًا أن أكتشف ما الذي يجعله يبدو هكذا دائمًا. وكيف، ومتى طرأ عليه ذلك التغيير، وكيف السبيل إلى حل رموز لغز كهذا الذي يعكسه علي دائمًا أخي ذاك الذي يصغرني بسنوات، فيصبح بإمكاني أن أجيب على أي

سؤال عويص سيوجد على الإطلاق، ويمكنني حتى.. أن أحدد في وضوح السبيل الواجب اتباعه كيف يكون، بحيث يظل الإنسان الريفي ريفيًّا، وبريئًا، وصريحًا في أثناء القرن العشرين.. يمكنني أن أتمكن من حل معضلة فكاهية لا حل لها بتاتًا كهذه، دون أن أتمكن من فهمه هو!

جلس أخي صامتًا يشرب الشاي الذي صنعته له، وكنت قد أصبحت محنكًا جدًّا في صنع الشاي لكل الأذواق المتعارضة من طول الممارسة، والمران المتصل، إلا أنه بدا مرتبكًا كالعادة، وكان شعورًا جديدًا إضافيًّا قد طرأ عليه، وأحسست به على الفور، شعورًا بأن وجوده لا لزوم له في هذه اللحظات، وصديقي الرسام معي، وكلانا لغز بالنسبة له، وشعورًا أيضًا بالانتظار قد بدأ يحس به، وقد كنت أفهمه -يدفعه إلى أن يستأذنني في أدب غريب عليه، أن أدعه يذهب لمباشرة أعماله، إلا إنني استبقيته هذه المرة، وألححت عليه في الجلوس بعد أن فرغ سريعًا من شايه!

كان قد أحس بأنه غريب بيننا، وكنت أنا أيضًا أحس كذلك بالغربة بينهما كليهما. هو وزميلي. فرجوته أن يبقى، لا أدري لماذا؟! فإن كان ذهابه لن يريحني في شيء، فما المانع من وجوده الذي لن ينفعني أيضًا، على الأقل يمكنه أن يستريح قليلًا، أخي المجهد ذاك، الذي يصغرني بسنوات، ويبدو أكبر مني رغم ذلك، وأشد عذابًا.

ومرت لحظات قليلة، اتضحت لي بعدها تلك الحكمة التي لم أكن قد قصدت إليها من وجود أخي بيننا، فقد ظل سائدًا ذلك الصمت الذي أحبه، وماتت كلمات النقد المتحمس على شفتَي الرسام، ولم يتمكن من وصل خيط السخف الذي كان قد انقطع بيننا.. وحتى هو كان أيضًا

قد بدأ يحس، أو يدرك لست أدري كيف؟! بأن كفتي أصبحت راجحة، دون نقاش في الفن أو في أي شيء آخر، بمجرد إضافة أخي إليها، إذا لم ينصرف. أو تصبح على أقل تقدير جلسة عادية صامتة لغرباء ثلاثة، يحدقون باستفهام في وجوه بعضهم البعض.

وكانت تلك هي الحقيقة -في الحقيقة- التي أردت دون أن أدري أن أؤكد وجودها! فلما يأس صديقي من الاستمرار في وجود أخي، قام معلنًا اضطراره إلى الانصراف، أو مكتفيًا على ما يبدو لي بهذا القدر من التعطيل والعطب الذي أحدثه بي، وإن لم يتمكن بعد، خلال زيارته من تحقيقه على النحو الذي كان يرجوه!

وأشرت له إلى الباب، وعلى بسطة السلم، تصافحنا أيضًا، نزولًا على تقاليد اللعبة، واشتبكت أيدينا على نحو ودّيّ، وربما كنا قد ابتسمنا كذلك لبعضنا البعض.. من يدري؟

وعدت إلى أخي، الذي لا أعرفه..

جلسنا معًا، وشرعنا في تدخين سجائر البلمونت، وكنا قد أصبحنا معًا أنا وهو لحظتها، اثنين فقط من الغرباء، بعد رحيل الرسام، ومن ثم أحس بعد قليل أخي الذي لا أعرفه بالتساؤل الذي لم أتساءله، فشرع في سرد حفنة من الأكاذيب التي كنت قد سئمتُ سماعها منه، يحاول بها أن يضع العراقيل أمام الأسئلة الملحة، التي كان قد أحس بفضولي يتجه نحوها كله، ونظراتي، وحتى سأمي، ولا مبالاتي بأكاذيبه، إلا أنه ظل مستمرًّا في دعم استحكاماته الحربية هو أيضًا في مواجهتي، ووضع

أكياس الرمل اللازمة، وجلسنا كل منا في مواجهة الآخر، وكنت أحاول دائمًا أن أمد له يدي بين الحين والآخر، من فوق الأكياس، ومن خلال الأسلاك الشائكة التي كان قد أقامها هو أيضًا، أمدها له بسيجارة أخرى أو حفنة من الكلمات والانفعالات المتوترة والجدال، ورغبتي في التنازل له عن بعض تركتي من الخبرات، وحصاد المعارك الماضية، إلا أنه رفضها كلها في اقتضاب، ولوَّح لي بقدرته هو أيضًا على الهجوم، وشن الغارات من جانبه عبر السور، إن لم أوقف في الحال رغبتي الشريرة في الزحف نحوه، ثم عاد رقيقًا واهيًا مرة أخرى، ومستغلقًا ومكنونًا في داخل حدوده، يدعوني أنا أيضًا في خبث أن أكون كذلك معه، وأن أقتدي به، قائلًا لي في إعياء شديد، ورجاء حزين محطم يناديني بالعينين الخابيتين القاحلتين إلى توقيع اتفاق صامت مشترك بإنهاء الحرب عند هذا الحد الذي حاقت بكلينا الهزيمة عنده، والتضحية المستحيلة غير البشرية الصبغة تطالبني بها باسم رباط الدم –على الأقل بالنسبة له– عيناه الصحراويتان،.. التضحية بذلك الجنوح البشري الحيواني للوصول بلعبة الهجوم والمناورة إلى نهايتها في تعقب تلك الرغبة الحقيرة الجوفاء، المكشوفة ابتداء في اقتناص النصر التام والنهائي، وتشييعه إلى ذلك المعسكر الذي قد كتب فوق جبينه، في الوهم، أن يتلكأ عنده ذلك الانتصار المجهد ليقضي أيامه الأخيرة بين خيامه، ويدفن بينها في النهاية، إلا ما لا نهاية.

وقالت لي عيناه المتعبتان إن الانتصار قد انقضى أجله في زمن

سحيق مضطرب الملامح، لا يمت إلى تقاويم عالمنا كلها. وإن الأخلاق التي كانت قد قضت عمرها كله باعتبارها صفته، أو وصيفته، أو عشيقته لا أحد يدري.. قد انتحبت طويلًا من أجله، وسقطت في جنازته، ودفنت في نفس ذلك اليوم الغامض الحزين، غير أن أحدًا من الناس لا يدري أين؟!

فليعرف من يود أن يعرف أين تم دفنهما. أنهما قد دفنا في خيال البشرية المتعب المريض. ولتعرف ذلك أنت أيضًا، وتتوقف عن تعكير كل المياه الإقليمية، والجوفية التي تخصني، ولا تهجم، ولا تتحسب، حتى لا تضطر يومًا إلى التراجع المهين! ولا تضرب فوق الحزام. ولا تحته، ولا في أي مكان.. لا تضرب بالمرة؛ لأنه.. لا داعي لإزعاج الموتى... لإزعاج الموتى في عصرنا المزعج! دعهم ينامون في سلام، أو بمعنى آخر دعهم ينتصرون على هذا النحو الحديث!

ثم ارتفع فجأة، وأفقت لأجده يبعد يدي الممتدة نحوه بسيجارة دون أن أدري، يبعدها بيده، قائلًا لي في رفض:

- لأ.. سيبني أنام!

وتركته فتكوَّم، ونام في مكانه كما هو، جالسًا في مقعده.

ولم تكد تنقضي بضع دقائق قليلة، على هذا الانتصار الذي كان قد حققه أخي، بشخيره المرتفع المتصاعد كالفقاقيع من فوق مقعده.. حتى دق جرس الباب.

ودلف منه إلى الداخل أحد الناس، حتى قبل أن أفتحه له.. كان

صوته قد دخل.. فتخلى أخي عن انتصاره في مرحلته الجنينية، وهب مذعورًا، يتلفت في اتجاهات جديدة جغرافية، لم يتعرف عليها أحد بعد.. واستوى جالسًا فوق مقعده في تمام اللياقة، وهو لا يزال يفرك عينيه بظهر راحتيه.

ودخل ذلك الشخص من بين معارفي، وجلس.

وأصبحنا على الفور غرباء من أجناس مختلفة ولغات ثلاث مختلفة مرة أخرى..

أشار بأصبعه في اتجاه ما متسائلًا في ضجة:

– يبقى مين الأستاذ؟

قلت: أخويا.

فرد قائلًا: طب مش تعرفنا.. ما عرفتناش ليه قبل كده؟!

قلت: ماجتش فرصة.

قال: «لا ميصحش.. تشرفنا يا أستاذ»، وقام إليه في ركنه الذي كان قد بدأ يتقوقع فيه منذ لحظات.. وينام، ورفع ذراعه إلى أعلى وأصابعه مفرودة كأنه سيصفعه، وأهوى بها فوق كتفه، أو فوق عنقه. لست أدري، مصافحًا.. وطوح يده عدة مرات في عنف كما لو كان يختبر قوة ارتباطها بجسده، وعاد بعد ذلك إلى مكانه، فجلس.. ثم قال لي، وهو يدفع رأسه إلى الخلف: اعمل لنا شاي!

وعدت من المطبخ بعد قليل، لأجد ثمة اندماجًا على نحو عجيب قد

حدث فجأة في غيابي، ولونًا عجيبًا من الود يلف حديث أخي المتحمس مع الزائر الذي لم يعرفه إلا منذ لحظات. وكان ذلك الزائر الغريب الأطوار، الذي لا تكاد تربطني به سوى خيوط صلة حديثة عارضة، عقدتها الظروف منذ شهور قليلة لأمر ما من أمور الدنيا. ولما كانت قد ضغطتُ وأحكمت عقدة تلك الخيوط جيدًا، فقد استمرت تلك الصلة ماضية في طريقها على نحو مضطرب، ولا معنى له، ولكنها مستمرة بدوافع الود من الجانب الآخر.. وهو تاجر، يرى أن معرفة الرجال كنوز، ولست أدري ذلك. إلا أنني لم أشأ أن أصدمه، ولا وجدت سببًا معقولًا يدفعني لأن أهز جذوره السلفية التي يعيش عليها، فضممته في النهاية هو أيضًا إلى كل المشاكل المرجأة التي لا حل لها. وكل القضايا المبعثرة في أنحاء وجداني للحفظ ضد مجهول.

سألني فجأة، بينما كنت أقوم بتذويب السكر في الشاي:

«شفت الفرن اللي بناه الأستاذ؟!» يقصد أخي.

دهشت، وأنا أكتشف أخيرًا أن أخي قد قام ببناء فرن، دون أن يشير لي من قبل إلى ذلك:

- فرن إيه؟!

قال أخي:

- فرن الإزاز!

- آه.. شفته.

قال التاجر: هيه.. شفته كويس؟

قلت: آه.. قعدت في مرة يوم بحاله هناك أرسم كروكيات.

فاتسعت عينا التاجر، وهو ينظر لي بهما في لوم، لخروجي فجأة عن الموضوع، وخلط الكلام عن العمل، بمثل هذه السفاهات التي لا تليق بشخص طيب مثلي، يمكنه لو تخلى عن تشبُّثه السخيف بها أن يندفع في الحياة، بصورة مفرحة تبشر بالخير!

كان التاجر قد اشتبك معي من قبل ذات مرة، في زيارة سابقة له، في معركة بدأها هو بهجوم صاخب شنَّه فجأةً فوق هذا الموقع بالذات من دون جبهتي كلها.

ويبدو أنه كان قد رتب في نفسه حربًا صغيرة باردة، متعددة المراحل، لتخريب قلعة الخيال التي تخصني، وإفساح أرضها الخصبة الطيبة، كما قال عنها، لاستثمار محاصيل أخرى (تدفعني في الحياة، على نحو واضح يبشر بالخير).

ولعل زياراته العديدة التي لا داعي لها أن تكون ستارًا من الود والأخوة؛ قد قصد إلى تدبيرها حتى يتمكن تحت جنحها من نسف قصور السخف المريبة التي تخصني، وفك أصابعي المتشنجة المتقلصة فوق عتباتها، وعلى مصاريع أبوابها الوهمية في استماتة.

وابتسم أخي في خبث، وهو ينظر لي، كأنه يحاول أن يقرأ أفكاري... لعله أن يكون قد اكتشف هو أيضًا شيئًا ما بشأن ذلك الضيف، ولعله فوق ذلك أن يتمادى في أفكاره، فيتوهم أنني أتقاسم مع هذا الرجل أعمالًا سرية أخفيها عنه، بعد أن ضننت بها عليه، وتحالفت مع الغرباء!

كانت حتى ابتسامته تشير إليَّ بأصابعها السوداء، وتتهمني بالخيانة، فتعجبت ليقظته الفجائية المنحرفة، أخي ذاك الذي كان قد نام.. ولم

يوقظه سوى التاجر.

هنا يحسن الهجوم.

فكرت بعض الوقت حتى توصلت إلى أن تعكيرهما قليلًا، هو مجرد دفاع عن النفس، واستحكامات وبضعة أكياس من الرمل، ومتاريس أمام زيارة التاجر المقبلة، وأيضًا تبرئة ساحتي أمام أخي التاجر أيضًا الذي كان قد أقام فرنًا لم أتنبه له، فرنًا لصهر الزجاج.. أخي الذي أحسست به يوجه أصابع اتهاماته نحوي، لتدمغني بالخيانة، وتعاطي التجارة من دونه بمفردي مع الغرباء!

وبدأتُ في الهجوم..

إلا إنهما -وهذا هو الغريب في أمرهما- قد نظرا ناحيتي في وقت معًا، بنظرات ملؤها التهديد والزجر، نظرات مفعمة بالاستخفاف كتلك التي يرمى بها الأطفال المشاغبون، ويعقبها الضرب عند اللزوم. كيف أصفها تلك النظرات الصارمة الواسعة الهجومية، المفعمة بالتحدي؟

انسحبت كما فعل نابليون من قبل، في صمت كسير، لكنني على عكسه.. أبقيت استحكاماتي في مواقعها، وأكياس الرمل، والمتاريس، وكل شيء.

وارتفع حماسها في الجانب الآخر من الصالة عبر (سور برلين)، الذي أخذ يفصلني عنهما.

وبدت لي الطاحونة، وأنا أنظر إليهما، وهما يبتعدان، ويبتعدان، وخيالي يمعن في التراجع نحو الشرق، والطاحونة القوزاقية تتبدى لي.

والمعجنة إلى جوارها، يعمل فيها رجال التاجر موخوف متخففين من ملابسهم، وأرجلهم في الطين.. وموخوف يقرأ بالليل في الصحف، خبر منح جريجور وسام (سان جورج)، لشجاعته في تقطيع الألمان بسيفه!

وتتبعت ثروة موخوف بعد ذلك كيف نمت كوبيكا بعد كوبيك، منذ أن وفد أبوه من ذلك المكان المجهول، حتى استقر به المقام في قرية تتارسك، ثم ابنه موخوف من بعده، وجهوده الضخمة في جمع الجانب الأكبر من تلك الثروة الطائلة التي آلت إليه، والتي سوف تؤول بالطبع من بعده لابنه الهزيل الذي كان يدرس قوانين الحقوق في موسكو؛ كي يتلاعب بها فيما بعد، ويعزف عليها وفقًا لنوتة أبيه التجارية، التي كان يدون بها الزمامات، وفوائد القروض المستحقة على فلاحي القوزاق، وابنته.. ابنة موخوف البضة، التي حملها ميتكا ابن الفلاح كورشينوف ذات مرة في الفجر؛ من حجرة نومها، بناء على اتفاق سابق بينهما، واصطحبها في قاربه لصيد السمك، ومن ثم أقحم نفسه فجأة على ذاتها، وأسال دماءها الخاصة، فوق الأعشاب المفعمة بالندى، تحت أشجار البتولا الغارقة في الضباب والظلمة، على الجانب الآخر البعيد، من النهر الهادئ.. قبل طلوع النهار!

وأفقت فجأةً، لأجد أخي يقول للتاجر في زهو:

– في الوقت ده كنت عاوز فلوس، مبلغ كبير يكفي أجور العمال، وتمن براميل المازوت، وتمن الأمبلاج، وصناديق الكرتون اللي ماكانش اندفع للراجل اللي باتعامل معاه في باب الخلق، لأنه مش حيبعت لي

أمبلاج وردية الليل، إذا ما وصلتهوش لحد دكانه، فلوس امبارح أولًا. ما كانش معايا ولا مليم.. أعمل إيه؟! وكمان يا عم العيال بتوع وردية الليل لازم يقبضوا في الفجر وفلوسهم تكون بايتة لهم في جيبي.. قامت الفكرة ضربت في دماغي.. وأنا في وسط الورطة.. في وسط الورطة من غير ولا مليم في جيبي، ولازمٌ أَمشِّي نفسي برضه، ويبقى لازمٌ أشوف لي تصريفه.. لازمٌ ألاقي حل، أعمل إيه؟

تساءل الآخر متلهفًا: هيه؟!

فرد أخي في تلكؤ الناجحين، وإيقاعهم المتباطئ المختال، بعد أن أوصل محدثه إلى أقصى مرتفعات الحيرة والتلهف:

- أقول لك أنا بقى عملت إيه.

- إيه؟!

- .. كل الكسر، والبضاعة اللي حتدخل الفرن تاني عشان تنصهر.. البضاعة اللي مليانة فقاقيع، وغلطات في المكبس، وفي التشكيل.. متنزلش السوق دي طبعًا؟

- طبعًا!

- كمان عندك البضاعة اللي مراحتش التجليخ، وغلطات فرن التحميص، لَمِّيت لك ده كله، وساعة زمن، وأنا إيديا على إيد الأنفار، كان اتعمل لهم أمبلاج عال العال، واتحطوا في صناديق.

- حلو!

– كانت الساعة بقت سبعة وشوية، الراجل الحاج بتاع الإكسسوار اللي في وكالة البلح، هو اللي ينفعني، معوِّده على كده، يستلم بضاعته نضيفة، ويدفع تمنها في الحال، وده بقى بيقفل تمانية بالضبط، وتاكسي قمت جايبه، وحطيت صناديق الإزاز فيه، وكبست ع المحل تمانية على القفل، لقيت الراجل يا دوب لسه بيشطب، رحت رامي له البضاعة في قلب الدكان في الضلمة، وخدت فلوسي على داير المليم، وشطّب الراجل؛ وتنُّه واخد بعضه ومروح!

– وبعدين؟

– صرفت أموري تمام، والصبح بدري إداني تليفون بزعيق، عملت نفسي مش فاهم، وقلت له إيه.. خير؟! قال: الزفت اللي في الصناديق، إحنا اتفقنا عليه؟ أنا دفعت لك فلوس براني قبل كده؟! كنت عامل حسابي.. لكن استعبطت. وقلت له: يا خبر! تبقى بضاعتك هي اللي قدامي دي بقى.. العيال لازم غلطوا.. جايلك مسافة السكة!

وضبت الأمبلاج والذي منه، ولميت الشغل بتاع وردية الليل في قلب الصناديق، وتاكسي.. وخشيت عليه هوا! قلت له الغلط مردود يا معلم بضاعتك أهيه! اتكيّف الراجل ع الآخر، وشربت الشاي، وتني واخد بعضي وراجع! وكلت رغيف عيش يعجبك.. خلصت اتنين من الشركا بحقهم، قلت لهم مع السلامة! وربك بقى يسهل ع الكتكوت اللي فاضل معايا دلوقت، أكبر حرامي فيهم التلاتة.. ده بقى عاوز له شوية رسم رايقين على قده!

هتف الآخر قائلًا فجأة:

– وحياة النبي أنت واد فنان.. واللي خلق إزاز الدنيا دي كلها! قوللي اسم النبي حارسه بقى الثالث اللي محتاج شوية الرسم الرايقين اللي بالك منهم دول.. راقد عندك على إيه؟

– أبدًا يا سيدي.. له كام فورمة، وقرشين هايفين كده، دفعهم في فرن التحميص!

تساءل التاجر الزائر قائلًا في زهق: يعني قد إيه؟

فرد عليه أخي مرتبكًا، وهو يلم نفسه التي أحس أخيرًا فجأة بأنه كان قد بعثرها في زهو متهور أمام الغريب:

– ولا قد حاجة.. بأقولك ماكنشي معايا مليم واحد في جيبي.. وكلت اتنين تاني يوم الصبح ع الرايق كده وحياتك!

فتراجع الآخر إلى الخلف في خيبة أمل، وقد زايله تربصه، وتحفزه للانقضاض، بعد أن أسرع أخي في مهارة عجيبة لم أكن من قبل أحسبها في طباعه، فسحب مفرش المائدة دفعة واحدة، بكل ما عليها من أمام الغريب، بكلمات قليلة دفعت الآخر لأن يُضيِّق حدقتيه في مكر، ويحدق بعينيه بعيدتَي الغور في أخي، وهو يقول له في إطراء وروح رياضية بحتة ليست من طبع التجار في شيء على ما أظن، بقدر ما هي من طباع المراوغين الذي يتمتعون باللعبة نفسها هي أيضًا، ويمقتون غالبًا كسب الجولات الأولى.. قال له وهو يتراجع إلى الخلف:

– لأ.. جدع.. بالهنا والشفا!

ثم استدار نحوي بعد لحظات قائلًا، وأصبعه مشرع في وجه أخي:

– ده بقى الرسم اللي يعجبني!

وعندما ودعتهما عند الباب.. كنت أعاني من الجفاف والغربة معًا مجتمعين لحظتها، كما لم أعانِ منهما في أي لحظة أخرى طوال يومي التعس، وكنت ملهوفًا إلى الكتاب، ومشاهد الريف التي تحملني إليها صفحاته، إلى قريتي، بعيدًا عن الحروب بكل أنواعها، وعن النساء، وعن التجار، وعن كل شيء آخر!

هبطا معًا درجات السلم إلى أسفل، وما زال حديثهما الودود المقبض يدوي في أذني أكثر، كلما هبطا أكثر، على حين ارتفع صوت الراديو فجأة في مسكن تلك المرأة الواقفة أبدًا، خلف قضبان شباك مطبخها، في وضع انتظار فاجع، ونداء لا يلبيه أحد، بذقنها البيضاء المدببة، دائمًا فوق ذراعيها البضتين المشتبكتين فوق قاعدة الشباك.

ارتفع اللحن منعشًا، وحزينًا، في صوت نسائي، مهيض، مكسور الجناحين: زورووني كل سنة مرة!

فغلبني الانفعال، وأنا أتزايل في مكاني على عتبة السلم، عائدًا إلى الداخل في خطوات مضطربة لا أكاد أحكمها.

يرحمك الله يا شيخ سيد يا دوريش، ويغفر لك، ويسامحك.. ويعوض الذين صبروا خيرًا.. ويجزينا عن شقاء الدنيا، أنت وأنا، والمرأة البيضاء التي تنتظر خلف شباك مطبخها!

هبط المساء فوق أطراف الألحان التي ولَّت، وانتشر الهدوء الحزين في الشارع الذي كان قد همد أخيرًا! وأمامي الليل، ملاذ المجهدين،

وستار الراكعين والساجدين، والمنقطعين للنجوى، واللاجئين إلى ظلامه هربًا من غباء النهار، والذين في آخره يرتلون الأوراد، وفي أوله يقرأون مثلي الروايات!

ها هو النهار القاسي القلب، والمدينة المخيفة، وسكانها خلف بابي.. والليل أمامي، ولن يحول بيني وبين الكتاب أحد.

أدرت المفتاح في باب مسكني دورتين من الداخل، ثم أضأت حجرتي الداخلية، وفوجئت بالكتاب ممدَّدًا فوق الأرض نصفين.. كل منهما في ناحية!

مثلي كان مجهدًا، وممزقًا عندما رأيته في أحد الأركان، وأكثر صفحاته الداخلية ضائعة، ومشتتة، ومتغضنة. وكانت قبضة من الأوراق قد انتزعت من قلبه، وتناثرت في أنحاء الحجرة، واختفت صفحات أخرى كثيرة تحت الحبر الأسود الذي كان قد اندلق فوقها، فانطمست تمامًا ولم تعد مقروءة!

قلبتها في فجيعة، ونبشتها باحثًا عن آمالي المحبطة، الميتة، في داخل أكفانها، فتأكد لي استحالة لصقها أو ترميمها. استحالة دخول الحياة ثانية في قلب الأكفان، وتبين لي في وضوح أنه قد انتهى بالفعل أمر ذلك الكتاب عن (النهر الهادئ). انتهى تمامًا بأيدي أطفال تلك المرأة البيضاء المستديرة الوجه المكحولة العينين.. حتى وهو في داخل حجرتي.. الداخلية!

الآلة

صرخ طفل عندما ضغطت على الزرار، فتهيأ لي أنه قتل.

انطلقت صرخته فجأة، فجف دمي، وهرب في عروقي.. تصورت نفسي قاتلًا، أو متسببًا في ذلك، لكن.. بقيت واقفًا.

فكرت في الهرب، مر في بالي فجأة أن علي أن أجد أجوبة.. ملأني الخوف من الفكرة.. لكن لم أتحرك. لم يمكنني ذلك!

استعدت الأمر كله كما حدث.. في غمضة عين استعدته، فأنا قد ضغطت على الزرار.. وكنت في الدور السادس، وأرغب في النزول.

أشياء لا بأس بها كلها، يصنعها الناس في المدينة كل لحظة. لكن..

دب الصراخ فجأة لحظتها في قلبي.. رن فيه، وضغطه.. وكان أصبعي فوق الزرار، فمن الذي يضمن لي في المدينة أنني لم أرتكب خطأ ما، وما أهمية نيتي؟ ومن الذي يضمن لي؟

أول ما فكرت، فكرت هكذا.. طفل صغير، فوق أو تحت، لكن في العمارة نفسها، يعبث في المصعد فلما ضغطت أنا، تحرك المصعد، أو قتل الطفل.. المسألة واحدة.. لكن كيف؟!

لا أعرف!! لا تمنع الأسباب أنه ربما يكون قد مات، ساعة صرخ.

كيف يعرف واحد مثلي، حسن النية، وقف ذات مرة في الدور السادس، ورغب في أن ينزل، أو.. صرخ طفل، عندما انضغط الزرار، فبدا كما لو كان صعق.. لم يخرج الأمر عن حدود ذلك.

لكن..

جاء المصعد، وكان به الطفل.

ارتسم فجأة على ملامح الحادثة، كما لو أنها تسير في اتجاه آخر.. رفع الطفل كفيه المستديرتين، دعك بهما عينيه.. وكان فمه الصغير مفتوحًا.

نظر إليَّ. لكنّ بكاءَهَ كان لا يزال يشرخ السكون، داخل المبنى الحديث الشاهق..

هدأت، ومددت يدي أفتح الباب.

أخرجت الطفل الوحيد بداخله، لأجد فجأة بنتًا مراهقة مستجدة.. تقف على حافة السلم الدائري، الذي يحتضن المصعد، ويدور معه، كفروع اللبلاب.. كالثعبان.. إلى أعلى.

خلف البنت، بدت حافة ركبة بشرية قصيرة، فوقها حرف بنطلون.. وتحت الركبة، إلى اليسار، بدت خصلة شعر صفراء، فوق قمة جمجمة بشرية حية.. لكن مستجدة للغاية.

اختفت الركبة المستديرة، لتبدو الأخرى، وفوقها كف بيضاء صغيرة تستند عليها من التعب.. كأنها كف عجوز محطم يدعم ساقه

بها؛ ليواصل الصعود، وتتابع ظهور أجزاء بشرية لطفلين، أخذت تبدو من حافة السلم الدائري، المعقد التصميم، وتختفي فيه كأحد أفلام الكارتون الحديثة جدًّا.. حتى انتهت أخيرًا، تلك العملية بوقوف الطفلين على حافة السلم، على حافة الدور السادس.. لحظة ما وصلتني المراهقة تمامًا.

وقفًا، ونظرا ناحيتنا.

عينان واسعتان، وخصلة شعر صفراء فوقهما.. ثم أسفلهما إلى اليسار قليلًا.. عينان أقل اتساعًا، لكن التساؤل يبدو بداخلهما أكثر شدة.. وخصلة شعر صفراء تعلوهما أيضًا.

لم يتكلما. لكن فقط تابعت نظراتُهما استقرارَها فوقنا.. فوق المصعد الذي وصل، والصغير الذي يبكي بداخله، والمراهقة.. وأنا.

وقفت كذلك المراهقة تنهج، لكن تضحك.. «ضبها» مفتوح. ثم طوحت شعرها فجأة إلى الخلف، بحركة نسائية بحتة، لكن سابقة لأوانها.. وانحنت على الطفل، تقدمت نحو باب المصعد، وانحنت عليه.. أجادت تقليد أنها انحنت.. ثم أخذته في أحضانها.. وما أحست بوجودي.

افتعلت الإعياء في اللحظات التي تلت ذلك، وزفرت، وكانت تتنهد، لكن.. في ذيل كل تنهيدة منها، ضحكة في الوقت نفسه.

ببساطة كانت هي البنت أو المراهقة التي تقف على حافة المرأة، التي لم يتمكن من أن يفهمها أحد.

سيطر فوق ذلك كله على سلوكها منذ أن جاءت.. بضع لزمات واضحة القدم، لكنها.. لست أدري كيف، كانت جديدة أيضًا، أو باختصار متوافقة معها.

وكانت البنت مراهقة لا أكثر. لم تكن تهدأ. قرصته في خده. ضمته في عنف.

لكن اهتاجت فجأة، ودارت مشاعرها. ثم تحركت الحرارة بداخلها إلى أعلى. فاض الشوق بها، ثم فار، ونضح على قسماتها، من تحت جلدها الرقيق الوهمي.

ثم هدأت قليلًا، ونظرتها على الطفل، كنظرة فيلسوف غبي، واقف الفكر.. لكن صحته بخير.. وفي موضوعية تامة قبلته.

كان الطفل في أحضانها وأنا أنظر لها، فوضح فجأة أنها لا تنظر بغباء فيلسوف مفتول العضل فقط، إنما أيضًا بحب قائد مستجد للسيطرة.. وشوقه للتقليد.. وتعلقه بالأسطورة التي قامت ذات مرة في رأسه.

مثل كل بنت صغيرة أخرى في سنها.. كانت! جسدها يتفجر عنفًا.. لكن يفكر، والعرق يسيل منه، ورأسها مزرعة يزدهر فوقها شعر لونه أصفر.. تطن به أفكار سخيفة أحيانًا.. لهذا تنفذ فورًا.

أدركت فجأة.. وأنا أقف أمامها، أن فكرة ما، طرأت على بالها.. فطبقتها على الوافد الجديد.

وعيناه التائهتان، تملآن وجهه، وتفرشان فوقه إحساسه بالخطر،

ووداع الطمأنينة، وولادة القلق، أحس بنفسه قد ضاع فجأة لما تحركت به الآلة إلى أعلى.

صرخ...

تهيأ لي أنها قتلته، لكن احتضنته بعدها، قبلته، وقرصته في خده.

من إحساسي بأنني كنت على وشك أن أضيع متهمًا.. إن كان الطفل سبقني مقتولًا صرخت:

- كفاية بقى!

وجمت البنت لحظة.. ونظرت لي، وابتسامة على فمها.. وعيناها ضيقتهما.. لكن وضعتهما عليَّ.. وتصنعت الأدب لتقول:

- متأسفة.. عطلناك!

المراهقة لحظة ما كانت تنفجر.. هادرة بحركتها المتوترة، في انفعالها الذي لم يهدأ.. اصطدمت فجأة بشيء ما.. وقف لها خارجها.. بي، لم ترتبك.. لم تهدأ.

أحست فقط بتطفلي. أشعرتني به.

لكن تصنعت السذاجة مع ذلك أمامي، لحظة ما كنت غاضبًا.. فلما بدت كذلك، وأنا أنظر لها، وضح فجأة أنني غبي لأنني غاضب.

اقترب الطفلان مني، نظرا لي بلا اهتمام.

مددت يدي إلى باب المصعد.

أردت أن أهرب. لكن.. سبقتني إليه أصغر الجمجمتين بالخصلة

الصفراء في أعلاها، فتحه ودخل.. وتبعه الآخر.. دخلت كذلك المراهقة والطفل على صدرها، فدخلت خلفهم.

شبت الخصلة الصفراء الصغيرة على أصابعها.. ارتفعت قامتها قليلًا.. فمددت أصبعها، وضغطت الزرار الذي بالداخل فتحركنا إلى أسفل.

نظرت فجأة في العينين التائهتين، اللتين صرختا من لحظة.. كانت الدهشة تملؤها، والبكاء.. والجهل التام بالتابوت الخشبي الذي يلمنا جميعًا بداخله، وبكل ما تحتويه.

لكن كانت عيناه واقفتين على الشريط المعدني الذي رصت الأزرار فوقه.

أطراف تجربة رعب مر بها فجأة من لحظة، كانت تغيم فوقهما لا تزال.. لكن انسحبت.

ابتسم.

ألصقت المراهقة رأسها برأسه.

مد أصبعه الصغير فجأة، وضغط الزرار في لحظة، كأنه وضعه في النار، وسحب يده فورًا.

ارتج المصعد في عنف.. ثم وقف؛ فانفجر صارخًا!

كانت صرخته الثانية في وجودي، ومع ذلك فلست أعرف شيئًا عن كل صرخاته التي مضت، ولن أعرف بالطبع صرخاته القادمة.

في غير استطاعتي أيضًا أن أحسب معدلها؛ لأنني نسيت أن أحسب

الوقت بين الصرختين، ولأنه لا جدوى من ذلك في رأيي، ربما هو مجرد طفل عديم الخبرة.. لم يتعلم بعد كيف يكون دقيقًا، ومنظمًا في إطلاق صرخاته بداخل الآلة.

ولست أشك في أنه سوف ينتظم، إلا أنه لم يفعل بعد.

وفوق ذلك كله، فلست أحمل ساعة معي. لم أعد في حاجة إليها منذ زمن بعيد لا أذكره.

نظرت الخصلتان معًا إلى الطفل الذي صرخ، وانفجرتا ضاحكتين.

أما المراهقة فقد تصنعت البراءة، وبقيت صامتة حتى توقفنا.

خرجت المراهقة بالطفل.

والخصلتان خلفهما.

وخرجت خلفهم.

في الطرقة نظر إلي الجبان الذي صرخ.. نظر في فضول؛ وأنا أغلق الباب خلفي..

ابتسم.. كأنه قد فهم.. أو وجدني كبير الحجم بدرجة تدعو للثقة، فقبل أن يتعلم مني.

حدق في الهواء لحظة.. وساحق عينيه الواسعتين.

ثم.. فجأة لف ذراعيه الصغيرتين حول المراهقة، والتصق بها.

* * *

الأمطار الموسمية

انبثق فجأة صفير حاد، وطنت في السكون ثلاث نفخات صارخة في ميكروفون الجامع المجاور.

ورن جرس كنيسة ما، ثلاث رنات أو أربعًا.

ومات مشمش.

فجأر الميكروفون، لاطمًا فجأة وجه السكون الأسود، وانهمرت مفحومة، تدوم في عصبية متشنجة وتتعالى ولولات آذان الفجر.

فتراءت في السواد كل الآلام التي بدأت بعد آذان العشاء.

ثم همد صخب الحادث المجنون، و كان مشمش قد مات.

تهاوت الدموع، راكعة فوق جثة الصمت.

ورن جرس كنيسة ما في السواد، رنة أخرى، لم يسعه أن يكبتها، ثم تدافعت رنات أجراس الكنائس الأخرى وركضت الأَنَّات، وازدحم التوجع وتفجر الخوف، وفي الأعماق نشبت ثورة الحنين فجأة، واندلع متوهجًا لهيب الطعنة فلطخ سواد النصل.

وأخذ الوجه الأسمر يزحف في بطء، حتى غطى وجه القمر الأزرق.

مددت يدي المرتعشة، فرفعت الغطاء الأبيض عن الوجه النائم من أحد الجوانب، كما تعودت حتى لا يكتم تنفسه، ثم..

انفجرت رنة رهيبة من عمق كنيسة ما، عندما تبين لي فجأة في ومضة سخيفة عقلية أن مشمش الحبيب لم يعد في حاجة إلى أن يتنفس بعد الآن.

شحب الوجه، فدفعت الغطاء جانبًا، وتهدمت هابطًا إلى قاع البشرية العاجز، وانزلقت في النشع متدحرجًا إلى أسفل السفح هابطًا كل الدرجات الحجرية القديمة التي ظلت تغسلها الأمطار الموسمية.

وكأنما بين ضباب الفجر، تهيأ لي منقار كتكوت صغير، أصفر اللون، مسبحي ميتًا، وسط الجدران بيتنا الريفي القديم، المتهدمة، التي نكستها الأحزان.

امتقع لون القمر الأزرق والوجه في وسطه بلون الليمون.

وبدأ الضوء ينتشر حول الدائرة بعد أزمان، وشعر الرأس الخفيف الطائر الملتف في شبه خواتم يلمع تحت الأمطار، وسقف الكنيسة يرتفع وتبتعد أصوات الصلوات، وأصداء التراتيل، والقمر الأسود، والوجه الليموني بدأ يضحك، وافتر الثغر، بلا أسنان في بدايته، كفم أبي في نهايته.

كان الوجه إلى الأمام يضحك ضحكة حلوة، ورأسي أنا؛ قليلًا إلى أسفل، وكل شيء كان ساعدي الأيمن يحوطه.

ارتفع الهتاف وتعالت الضحكات، وكان النحيب قد انزوى بضع درجات إلى أسفل، وتلاشت أصداؤه أمام الصخب الذي تمطى في جنبات الكنيسة، صوت الأنين من الداخل، لكن الفرحة كانت قد استوت على كل فراغ القاعة، فانزوى الحزن سبعة شهور أو أكثر، رحل قرب نهايتها، ساحبًا ظلاله القاتمة كلها من تحت قبة الكنيسة، لوى وجهه ومضى غاضبًا مكسور الجناحين.

وانتشر الضوء أكثر، كانت الشمس سوداء مرسومة على سقف الكنيسة، ثم بهتت بفعل الزمن، وزهزه الوجه الأسمر، أشرق بلونه البني؛ فانمحت النجوم كلها، وانصرف القمر مرتبكًا، وشعشع مشمش الصغير، وتوهجت ضحكته المتسائلة في لهفة مكان الشمس السأمانة المتهالكة.

لم أستطع أن أُقاوم رغبتي المجنونة في النظر إلى قدمه الصغيرة تحت الملاءة البيضاء وإلى ظفر أصبعه الذي كان يحك به ذيل جلبابه، ورأسه المستدير مطرق إلى أسفل، وعيناه شاردتان فوق تفاصيل السجادة المتزاحمة، مستغرقتان في شيء ما، كان يطبعهما في إطراقته تلك؛ طابع أبي عندما كان يسرح في همومه ويشرد في زحام لم نكن نفهمه، «كنت بتفكر في إيه يا مشمش؟ مشغول بإيه بدري كده؟»، فيرفع رأسه نحوي، وتتسع عيناه الواسعتان مدهوشتان في صمت، ويشرد ثانية في ابتسامة هادئة، وكنت أتوقع لحظتها أن يقلب راحة يده إلى أعلى بهزة صامتة من رأسه المستديرة ونصف ابتسامة، ولا رد؛ كما كان يفعل أبي بعد ما كان يطرق مثله إلى الأرض، وتهتز راحته اليسرى فوق ركبته وهو غائب في لحظة شبيهة بلحظات مشمش!

وتحسست قدمه الصغيرة، رفعت طرف الملاءة عنها، وقبلتها بين كفي، كانت ثقيلة جدًّا كأنها من الصخر قدم مشمش الصغيرة، يغلب الاصفرار على سمارها، وعلى سطحها تجمد الدم في خطوط مائلة، وكان ظفر أصبعها الكبير غامقًا؛ وفي حاجة إلى تقليم.

انفجرت باكيًا؛ فشحب لونه.. ولمحت وسط الضباب «إيشارب» أصفر فاتحًا، كان يحيط شعر رأس المستديرة في نصف دائرة فوق غطاء الوسادة الأبيض، و..

كان قد سال تحت فتحة أنفه اليُمنى سائل لا لون له، مسحت دموعي بشفتي، ومسحت السائل الذي سح تحت فتحة أنفه اليمنى، وقبلت عينيه الشاردتين في الداخل؛ ورموشه الطويلة الهامدة!

توقف الحلم عند لحظة التعميد، وضاعت لحظة في غيبوبة الضباب، تحت قبة الكنيسة، كان ساعدي الأيمن يرفعه إلى أعلى؛ وفرد جناحيه، وطار شعره في الهواء، قفز إلى أمام أو إلى أعلى، لستُ أدري! سألت الحاج الذي سرد الحلم على أسماعي قبل الغروب، قبل أن تتهدم كل قبوات الكنائس فوق رأسي، فوجدته هو أيضًا لا يدري.

لم يوجد الحاج أبدًا في أي وقت ضمن الآلاف الذين احتشدوا تحت القبة في أثناء التعميد، فكيف عرف! وكيف جذب تعميد مشمش اهتمام حتى أولئك الذين لم يشهدوا -مثل الحاج- أي قداس؟

وأي صورة تلك التي رآه الحاج عليها في حلمه؟ خشيت أن تكون ابتسامة مشمش قد تبدت للحاج في نومه أقل سحرًا مما كانت عليه على حقيقتها في أثناء التعميد.

لم يقطع بشيء عندما استفسرته عن هذه المشكلة؟ قال إنه رأى منامًا، تمجد فيه جموع الكنيسة كلها، ابني البكر، وإنه لم يتبقَّ في خياله منه سوى روعة القداس نفسه، وساعدي الأيمن مرفوع إلى أعلى -لم يقل لي في تسليم عاجز؛ كان ساعدي الأيمن مرفوعًا إلى أعلى، أم في يأس؟ لم يحدثني أبدًا قبل الغروب عن شيء من هذا كله- كل ما تذكره هو أصداء الهتاف وإعجاب... -كان أبي قد انتوى أن يشتري له كفًّا بخمس أصابع من الذهب تلصق على جبهته، لتبطل فعل الإعجاب! ولكنه مات قبل أن يفي بوعده-.. وتذكر الحاج روعة الإنشاد، وإجماع المنشدين، وتدفق الشِّعر، ورائحة البخور، وجذب السحر، ونعومة الشعر الهفهاف وسواده وسط طاقة الضوء ورفرفة الأجنحة وحادثة الاندفاع إلى أعلى أو إلى الأمام.

بين لحظات التعميد تحت القبة لحظة، تهادى فيها الحمار نحو مزوده، تحت الساقية التي أدارتها في دوامة لا نهائية جاموستان سوداوان، ذكر أو أنثى بعيونهما تحت الغما، ومدت الشجرة القديمة فروعها الخضراء إلى أعلى، اخترقت سقف الكنيسة الأزرق اللون، واهتزت فروعها في الفراغ البارد.. أذرع عديدة مرتعشة، خضراء يائسة تطلب الرحمة، ومد الحمار عينيه الدامعتين نحو المزود، ثم توقف.. وفاضت عيناه الخرساوان بالحنان، وارتبكت دموعه الأبوية أمام عيني مشمش الواسعتين المستغربتين اللتين طالت رموشهما السود حتى بلغت شاطئ النهر، وتحسست وجود الحمار الباكي، واستنجدت بي عيناه المتجولتان، الهائمتان، تطلعتا نحوي مستفهمتين في خجل هادئ،

وحيرة بحبتيهما الكبيرتين اللامعتين على وجهه؛ ومشروع ضحكة من ضحكاته، أجلتها الدهشة والاغتراب لبعض الوقت. كان يجلس عاريًا مفترشًا هدومه في قلب المزود، وفوق العينين الواسعتين حلقات شعره الخفيف الطائر الملتف في شبه خواتم حول الجبهة المستديرة، وكصفحتين سمراوين، بدا لي صدغاه الخاليان من خواتم شعره.. كانا يوحيان لي دائمًا برسم حمار فوق كل منهما. تجيئني نظراته دائمًا بهذه الفكرة، وسذاجته، وضحكاته عندما أفضيت إليه لحظتها أيضًا برغبتي المتزايدة في رسم الحمارين، كل منهما على جانب، فينفتح فمه الصغير في إعجاب، وتحدق عيناه في وجهي باستفهام فاهم، ورغبة في معرفة معنى كلماتي التي أعجبته مقدمًا.

يومها قلت لك يا مشاميشو إنك حمار، وحلفت أن أرسم لك الحمارين فورًا، واحد في كل ناحية بدل العصافير، ومددت أصبعي إلى رأسك المستديرة، أدعوك في عبط إلى التفكير. لقد بكى الحمار عندما رآك، وتوقف في مكانه يتطلع في لهفة، يقول في نفسه: ما الذي أتى بمشمش إلى هذا المكان؟

ومددت يدك الصغيرة، تريد كعادتك أن تهبشه.

وحبتا عينيك المتسائلتان في عبط، دفعتاني إلى أن أفضي إليك بأن اسمه مشمش، وأنك حمار لدهشتك، وأنت تقابل حبه، ووقفة حنينه الملهوفة بالتساؤل.

فهل كان حمارًا يا صغيري ذلك الذي وقف بكل متاعبه؛ أمام طفولتك العارية في قلب مزوده؟!

ضحكت أيضًا عندما قلت لك في النهاية إنه لم يعد في استطاعتي منذ جئت -وورطتني في تجربة الحب الأولى المرتبكة-، أن أحسم أي شيء، ولا أن أستخدم معك أسلوب التحديد!

فقد كنت قد انتويت يا صغيري أبدًا ألَّا أخدعك! ألا أخدعك ما أمكنني.. أيها المسيح الصغير الأسمر العاري، الذي جلس يضحك فوق هدومه، في مزود الحمار؛ ويتطلع إليَّ كما لو كنت أعرف!

سأموت متسائلًا أنا أيضًا يا «أحمد» كما فعل ذلك الرجل الذي رسم المسيح الزنجي على كتف أمه، فلقد تبعته عندما فكرت في أن أرسمك في قلب المزود.. إلا أنني على خلافه لم أفعل ذلك! كنت مشغولًا بالقداس؛ وكان زحام -الكنيسة- ومشغوليات التعميد قد صرفتني، فلم أرسمك إلا من خيالي بعد أن رحلت.

وأخشى يا صغيري أن أكون قد ارتبكت ذلك الخطأ الذي فزعت منه، عندما ومضت في عقلي، وأنا أتسمع إلى حلم مصيرك قبل الغروب.. إن ما رسمته بالفعل لم يكن أنت. أدركت ذلك قرب الفجر... قبل طلوع شمس الثلاثاء سوداء اللون.

كان ما رسمته هو عجزي.

وهو وثيقة عقارية تحدد -تمامًا- نصيبي من الإدراك.

وثيقة مفزعة في صراحتها.

لكنني واجهتُ التحدي يا مشمش، وجرعت مرارة المواجهة مع نفسي، فطرقت وجودي بشدة على حائط الوصول الذاهل، لأسمع رنين

معدنه.. وهذه في زمننا الواعي؛ طريق قطبية؛ عاصفة الانحدار، تقود إلى اليأس والتجمد؛ بلا نجوم، ولا رفقاء، ولا مشيعون! لم أتردد يا صغيري من أجلك، وحتى لا أنساك على نحو ما، وكمحاولة -مثل هذه المحاولة هي أيضًا- لأن أقول!

لكن عزائي أن ذلك الرجل -الذي ترك أطفاله- قد قال قبلي ما شغله على نحو أفضل. ولقد دفع يا مشمش أكثر من كل ما ذكرته لك الآن، ربما لكي لا نعدم أملًا وحيدًا بائسًا في أحلك اللحظات!

وإنني لأحسده.

وأحسده أكثر على أنه مات وحيدًا وفقيرًا وبائسًا، في مرضه وقوله وتساؤله؛ على أرض جزيرة استوائية سمراء منعزلة، سجنتها المياه من كل جانب.. حتى انفجرت كل آلامه لحظة الخنق؛ في شهقات ثلاث؛ ابتلعتها المياه في طيش؛ بعد أن همد.

من أين أتينا يا مشمش؟

ومَن نحن؟

وإلى أين سنذهب؟

انتهى القدَّاس، وأغلقت الكنيسة أبوابها؛ وهدأ كل شيء بعد أن انفض المهرجان؛ وتمطى السكون، ولموا الملابس كلها في بقجة، حفروا لها حفرة كبيرة تحت أرض الكنيسة، وصدر قانون دنيوي بإلغائك لصالح الأحياء، حتى يتفرغوا لمتابعة مشاكلهم.

وزحف العدم على بلاط الصمت والفراغ؛ مكان المولد الذي انفضَّ.

انحط النظام الذي كنت أحبُّه فجأةً، على أرضية كنيستي المحدودة الضيقة.

وذكرني الهدوء، وبلاط -الكنيسة- البارد المغسول بوجودك؛ لأنه تغيير حدث بعدك.

على فكرة يا «أحمد»، لم يحضر «جوجان» موت ابنته الصغيرة.. وإنما بلغه خبرها في خطاب، ولعلك تستنتج من ذلك أن وضعنا أرحم.

كان «جوجان» مع ذلك؛ يتمتع في شبابه بحيوية جيدة؛ تتفوق كثيرًا على صحتي، كما أنه كان جريئًا مغامرًا حكيمًا متمردًا وموهوبًا في تهور.. أما زمننا الشاحب، فيميل يا صغيري إلى التقشف في كل شيء!

ومن تحت ثقب الباب جاءتني «جريدة»، لتسحبني خارج جدران الكنيسة الضيقة!

تحت برج العقرب وجدت:

- وثبة موفقة، وتغيير عائلي سعيد!

وأسفل تحت برج الحوت، تتنبأوا لي بـ:

- توعك الصحة، وانحراف المزاج!

نم يا مشمش يا حبيبي. نم..

حتى تسعفني قواي على أن أثب إليك خارج كنيستنا الكئيبة.. المتجهمة، وثبة مثل وثبتك!

وإلى أن تحين لحظة وثبتي الموفقة تلك، يعزيني خيالي الذي تعج بداخله كل كتب الموتى وأوراق البردي.. وكل ما رسمه المصريون السمر القدماء، على جدران معابدهم التي تهدمت عن الموت! وفوق كل ما ورثه جيلنا عن الهنود، ومآسي اليونان القديمة، وتركة الكنائس من كل عصور المسيح عالم آخر بلا حدود، تزحمه الابتسامات، والضحكات المدهوشة، المتفتحة على بهجة الحياة، والرموش السود الطوال.. والشعر الطائر، الملفوف في خواتم.

وحزن جديد بلا حدٍّ، وخرائب كنيسة ضيقة...

إضافة إلى ما تقدم من أحزان...

* * *

الصدأ

أغمضت عيني، فلم أعد أرى الطلاء، لكنني لن أستمر في إغماضهما، فماذا أفعل؟

هل أقوم له؟

أدخل مندفعًا فجأة، فأصيبه بالذهول عندما أخطف الكرسي، فينظر إليَّ مشدوهًا، ويحاول على الفور أن يلبس القناع ليهزمني.

لكن.. أسنانه الصفراء ستبين حتمًا خلال فمه المفتوح، وعيناه محدقتان فيَّ، وفكّه بارز إلى أعلى، يحاول أن ينظر لي في ثقة كالعادة.

أحطم له فكّه البارز في ثقة أنا أيضًا بالكرسي في يدي؟

لكن..

لماذا لم أفعل ذلك لحظتها؟!

هدأت عندما تذكرت، ثم زحف الصدأ.. غضبي أصبح عادة.

ألقيت بنفسي فوق المقعد، وعيناي المفتوحتان تاهتان في الحائط المقابل.

الحائط يغطيه الطلاء.

ولا توجد بقعة واحدة فوقه، وكأن الحجرة لا يشغلها ستة موظفين معًا؛ لكل واحد منهم قلم مملوء لآخره بالحبر.

اختنقت، ثم أحسست فجأة بالتعاسة رغم أنني لم أكن سعيدًا.

لا مكتب لي خاص، فالغرفة أربعة أمتار في أربعة، أستعمل مكتب الجالس أمامي؛ وجهي له؛ وأوراقي أضعها عنده، ورغم ذلك يشي بي.

صَرَّت أسناني فوق بعضها.. ضرست، وعيناي تاهتا ثانية في القناع، لون الجير على الحائط.

أمامه يجلس ابن الكلب، والنور مضاء بالغرفة؛ والساعة قاربت الواحدة، والحر يكتم أنفاسي. وأسفل جفوني تختلج.

قمت عندما تقابلت أعيننا.

ثم اندفعت خارجًا، وأنا أضغط على أعصابي، واحتواني الطريق.

العمارات على جانبيه كانت عالية.. ومقسمة كلها إلى نوافذ، وشرفات كأنها أعين مصوبة نحوي.

والناس فيه؛ كأنهم قد تركوا المصلحة لتوِّهم مثلي.

كانوا يسيرون في الاتجاهين.

لكنني أحسست بهم يسيرون كلهم عكس اتجاهي.

العمارات فقط على الجانبين هي التي كانت تعيش. أحسست بها تميل عليَّ وتضغط كأنها تخنقني.

دخلت نفسي.

سجنتني المشكلة؛ داخل تابوتها المظلم الخانق، فدخلته معها. والذين حولي كانوا مثلي، لكن.. كنت أنا أغلى أكثر.

ربما لأني نازل من المصلحة لتوي؛ وسائر في الطريق، وكنت أفكر.. لكنها كانت.. أفكارًا.

قدرتي على التنفيذ أصبحت عادة، أوشك النبض نفسه أن يموت هو أيضًا بداخلي.. ويصبح عادة!

لكن هب اليوم فجأةً.

لأنه فجأة جاءتني الفكرة وأنا أسير.

فلماذا لا أهرب؟

هل أنا في مثل صلابة العقدة وحبكتها؟ وكم من الوقت يمكنني أن أظل أحقن في نفسي؟ كم؟!

ألقيت هذا السؤال على نفسي لمَّا لم أتصرف كشخص قوي، فلماذا لا أسلك كإنسان ضعيف؟!

إن أنا اشتريت تذكرة، ملكت الحق في أن أهرب خلفها. والذي خلق لنا المشاكل فوق بعضها بلا رحمة؛ خلق لكل منا في التو واللحظة ضميره الخاص به؛ وأباح له استعماله بمعرفته.

حتى الموت.. للأسف مسألة صدفة.

هل أتكلم عن الانتحار؟

كيف يمكن لإنسان جبان مثلي أن ينتحر؟

ظهر لي فجأة أنه لا بد أن يكون الواحد منا بطلًا سواء أراد ذلك أو لم يرد.

حتى الانتحار، لم يعد في يدي!

لم أرضَ لدموعي أن تسيل.

فقط حولت الأزمة إلى حسابي الخاص؛ ورفعتها من دنيوية المكاتب الحكومية التي في المصلحة؛ إلى خلود الفلسفة والأفكار.

كنت أفكر.. لكن كنت أسير...

ثم إني وإن كنت جبانًا؛ فلستُ أنا إله الجبن، لكن فقط واحد مثل كل الناس يخاف على عمره، ولست ضعيفًا.

إنما لا أحب العنف.

كنت مندفعًا في الطريق لا أزال، منذ تركت المصلحة خلفي مهتاجًا، قميصي مفتوح على صدري، وشعري منكوش مثل امرأة لا أهل لها.

والمدينة كانت واسعة، لو رغبت أن أظل أفكر.

واسعة تكفي انفعالاتي، لو رغبت مشيتها حتى أهدأ، لكنها محدودة.. لأني لا أنوي هذه المرة أن أهدأ.

المدينة محدودة. لكنهم كانوا حكماء، فحولوها إلى قصاصات؛ صنعوا بها حواري ملتوية، متعرجة كالحبال، هامدة جنب بعضها.

أسير فوق هذه الحبال، وأتركها تسلمني لبعضها البعض.

دمي احترق كله. فكرت عندما احتواني كل زقاق منها في أيام مضت، وعندما سرت فوق كل الحبال، وسأدخل الحرب باختصار.

لكن...

ليس الآن!!

قدرتي على التأجيل؛ كانت موهبةً فأصبحت عادة. كنت خارجًا أيضًا من المصلحة.. فلست موضوعيًّا بعد.

تلزمني مهلة.

في الحقيقة يلزمني إنسان، فأين أجده؟!

صح عزمي إن أنا وجدته، لأسقيه شايًا على أقرب مقهى؛ وأشعل له بأصابعي لفافة من علبتي؛ وأقعد بجواره أحكي له.

سرت حتى انتهى الشارع؛ فانحرفت في غيره.. وكان الأمل ما بقي يملؤني بإمكان وجوده.

إلا أنه لم يوجد.

كنت فقط قد وصلت إلى المحطة، قلت في نفسي: ما معنى إزعاج الناس؟!

لم أفكر في باحث اجتماعي محترف، كما لم أجد لديَّ أثرًا من الموضوعية يجعلني أعترف لحظة بواحد من أطباء النفس البشرية؛ الذين تزحم أسماؤهم الشرفات.

والمسألة وضحت بعد أنها شخصية جدًّا، فلم يصبح أمامي سوى أن أجد لها إنسانًا شخصيًّا مثلها.

بحثتُ؛ وكنتُ أسير بين ممتلكاتي الخاصة؛ فوجدتني لا أملك سوى إنسان واحد، كهل، ولكنه شخصي؛ حسب الطلب.. أبي.

فلماذا لا أذهب إليه؟!

لن أسقيه شايًا بالطبع؛ لكنني سأدفع أجر القطار، ورحلة لا تتعدى سوى بضع ساعات.

دفعت؛ وركبت.. ثم ألقيت بنفسي على أحد المقاعد، ومرت لحظات؛ تحرك القطار بعدها، هادئًا في الأول.. لكن سرعان ما بدأت أعمدة التليفون تسرع في عكس اتجاهي، ثم انتهى بانفعال. وأخذت عجلات القطار تدق فوق القضبان في عنف.. وتدق فوق رأسي.

جذبت نفسًا طويلًا من السيجارة؛ ونفثته في الهواء؛ وغام كل شيء؛ واختفى في الدخان، ملت ناحية الشباك لألقي العقب، لكن ابن الكلب ابتسم. كانت. دقات القطار فوق بعضها. ثم دخل الساعي خلفه، أشار لي، ثم استدار؛ وسبقني.

سرت خلفه كأنها المرة الأولى التي أدخل فيها عليه.. حتى دخلت.

ودارت الأرض تحتي! خرجت.. دون أن أرى الكراسي، ولا رفعت واحدًا منها، وإنما فقط.. خرجت بعد أن تكرم حضرته، ونبهني إلى انتهاء الزيارة.

ابتسم، دهن وجهه بانفعال ما كالعبط؛ وهو ينظر لي بنصف عين نائمة في وضع مائل بزاوية مائلة لا أعرفها، على خط الأفق العريض؛ كتف جاكتته.. وكانت أصابعه تقبض على التقرير.

قال لي في محاولة للتهريج؛ بالابتسامة على أسنانه الصفراء لا تزال:

- اقعد بقى اشرب قهوة.

وفجأة رفع صوته قليلًا لتسمعه المصلحة كلها فحسب، وصرخ:

- اتفضل يا افندي شوف شغلك.

لحظتها أفقت لنفسي، وخرجت!

في الطريقة حاولت أن ألقي سؤالًا على نفسي المجروحة؛ مع ثقتي بأنها لن تعثر على جواب واضح.

كانت عجلات القطار تدق فوق رأسي، والأعمدة كلها تفر خلف بعضها في ذعر.. لكن في عكس اتجاهي.

فتمددت على المقعد الخشبي؛ وخلعت الحذاء؛ أما الباقي فقد قررت أن أتجاهله.

قلت لنفسي إنني ذاهب إلى البلد، فماذا يهمني إن أنا نظرت، فوجدت الناس داخل عربتنا ينامون على المقاعد الخشبية الغير مريحة، والعرق اللزج ينزلق على أعناقهم. أما الغباء؛ إن كان ارتسم على وجوه النساء؛ فذلك يخصهن. والأطفال باختصار؛ ليست أيامهم هي أيامنا.

ثم حاول القطار أن يهدأ، وأخذت الأعمدة تتراجع إلى الخلف، فارتعبت.. لكن القطار، توقف فجأة.. أطلق صفيرًا مؤلمًا، ثم همد في محطتنا، وعندما هبط الصمت على العربة. أحسست بالطعنة، وبشعور مثل الخيانة، أو الغدر. لكنني؛ كنت أنا الذي اشتريت التذكرة بنفسي، وكنت أريد أن أرى أبي، ثم لقد أصبحت في بلدنا.

نزلت، فتحرك القطار.

صرخ فجأةً وانفعل، ثم ترك محطتنا، واندفع هائمًا على وجهه الأسود نحو الأفق الأحمر، عبر الحقول، حتى ضاع فيه.

كنت على الرصيف المتهدم. اليافطة الباهتة مرشوقة في قلبه؛ كأنها شاهد قبر. لم أحس بأني في بلدنا.

شعرتُ فقط أنني وافد غريب.. لم يَدْعُهُ أحد، لكن قررت بصفة قاطعة أن أرى أبي.

وسرتُ على الطريق المترب.

كانت الشمس تغرب منسحبة من على الماء الأحمر، والتراب يسفو، ثم ظهرت بضع أقدام قليلة مفرطحة تدب فوق التراب، وبضعة كلاب تطوقها.. لا تنتج، لكن تسير فقط على حافتها. حتى اقتَرَبَتْ.

وتقدم النعش؛ بدت من تحته رأسان محنيان للأرض، لحظة ما كان الفقيد يجثم فوقها داخل الخشبة، وقفت لهم حتى مروا.

وعدت أسير... ثم اختفى ظلي من على الأرض، عندما انحنت فوقي من الجانبين، كما لو كانت عمارات؛ شواشي الأشجار؛ ومن داخل أوراقها الصفراء المتشابكة جاءتني أصوات غامضة، لكن جائعة..

غابت الشمس؛ وأنا أتقدم لحظة اصفرارها لأنحرف داخل حارتنا، حتى وضعت قدمي على عتبة الدار. دفعت الباب بقدمي، دخلت مسرعًا. ثم وقفت لحظة خلفه وزفرت.

ذلك لأنه هنا فيما أعتقد، يمكنني أن أدفع الباب بقدمي؛ أو أتنهد

خلفه، دون أن يحتج أحد، أو يكتب تقريرًا ضدي.

لم أجد أحدًا.

انزلق قلبي فجأة بين ضلوعي؛ واندفعت إلى الداخل.

الصمت كان يطن، كأنه طبلة ضخمة، والهواء أو الذباب لا أدري. يوش كوابور الجاز.

خرج صوتي في همهمة لم أقصدها، فبدا لي مقبضًا وسط الوجوم الذي عشش على كل شيء. ولم يقابلني أحد. فلم يبقَ سوى أن أقدم نفسي، أن أبحث عنهم، ثم أقدم لهم نفسي أو أستقبلهم!

تقدمت بضع خطوات أخرى داخل دارنا.. بدت لي فجأة طويلة... طويلة إلى الداخل، كأنني أراها لأول مرة. كأنها كهف.. إلى الداخل.. وإلى تحت.

لم أستطع أن أظل واقفًا.. فجلست على حافة السلم المتهدم.

ورأسي نكستها، ووضعت يدي حولها، لكني لم أستمر. قمتُ.. وجدت أبي نائمًا خلف السلم، ظهره للحائط، وساقه عارية، ممدودة أمامه، وفمه مفتوح.

فكرت أن أوقظه، لكنني لم أفعل.. مررت به فقط، وخرجت من الباب الضيق إلى الجنينة الخلفية، رأيت بابها مخلوعًا من إطاره، ومسنودًا إلى الحائط.. على بعد خطوتين.

تركته واندفعت إلى الطلمبة، وجلست على حافتها، كان حوضها جافًّا تملؤه أوراق أصفر لونها. أما الطلمبة؛ فقد كانت معطلة.. مقبضها

مخلوع، وملقى بجوارها في التراب. كانت هناك أيضًا قطع من السلك.

يعني كانت هناك محاولات لإصلاحها، لكنها فشلت.

لم تثبت طلمبتنا الصغيرة. وقف الزمن أمامها، والحاجة الدائمة إلى الماء، فلم تثبت. وجدتها معطلة، ومقبضها مخلوع.. يغطيه الصدأ.

تركتها، واندفعت إلى الداخل كجبان تلاحقه الأشباح. اندفعتُ. أما الأشباح فقد تهيأت لي بأعين حمراء بلون الصدأ، ومخالب وأنياب مثلها.. مغطاة كلها بالصدأ.

جريتُ أمامها..

كنت أود في الحقيقة أن أظل أجري لا أدري إلى أين.. لكن، انكفأت فجأة على وجهي، وأنا أمر عبر الباب المخلوع.

عثرت بساق أبي الممدودة أمامه، وانكفأتُ.

بقيت مذهولًا لحظةً. هل عثرت بساق أبي نفسه؟ استيقظ، كأنه أحس أنني سقطت!

نظر لي في بطء، لكن لم يقل شيئًا.. حاول أن يبتسم لي في الواقع.. لكن ذلك لم يمكنه. فقط ارتسم تعبير ما على وجهه، لا هو ابتسامة، ولا بكاء، ولا أي شيء آخر. تعبير لا أعرفه.

حاولتُ أن أعتبره تحية خاصة من أجلي.. زحفت، لم أقم، ولم أنفض ثيابي. لكن زحفت، فجلست بجواره، وظهري مثله للحائط.

ولم أقل شيئًا. ومرت لحظات.

نظر كل منا للآخر، كأنه سؤال عويص لا يقدر على حله.

لم يتكلم، فلم أتكلم!

لو أنه تكلم، لضايقني ذلك.

لم أحس بالراحة أيضًا عندما نظر لي وسكت. ماذا حدث؟

قلت لنفسي: لا شيء!

أبي أعرفه. وهو كذلك يعرفني. ما فائدة الكلام؟

مرت لحظات. تذكر بعدها. فعاد إلى محاولته السابقة لأن يصنع ابتسامة من أجلي. شعرت بالاختناق، لكنه استمر، انفرجت شفتاه المرتعشتان.. ونظر لي بعينيه الغائرتين، قال:

- إزيك؟

- وأنت مالك!

لم أقل ذلك طبعًا، ولم يهتم هو بردي.. لكن ماتت نظرته عليَّ.. شعرت بالراحة، لأنني لم أجرحه، واستطعت أن ألم نفسي في الوقت المناسب!

ثم جاءني فجأة أنه ينبغي أن يكون هناك ذوق، إذا ما تحدث الواحد منا مع أبيه الذي أنجبه.

صحيح أنني كبرت، صرت أكبر مما يظن هو، لكن الذين وضعوا قوانين السلوك لم يلقوا بالًا إلى ذلك، ولا دروا بانفعالاتنا.. ولم يكونوا موظفين معي، ولا أحس أحدهم بالصدأ يزحف نحوه، ولا كان مقبض طلمبتهم مخلوعًا، وملقى جنبها في التراب! كانوا فقط أناسًا ذوي أخلاق حسنة!

قمت واقفًا إذ ذاك، ودون أن ألقي التحية سرت خطوات.

أحسست به ينظري في ظهري استدرت! لست إنسانًا سهل البكاء، ولا أحبه، لكن بكيت عندما صافحته.

لم يتكلم، فلم أتكلم. نظر كل منا للآخر، ثم تركته. تركت دارنا كلها، واندفعت خارجًا، وأنا أضغط على أعصابي.

عدت إلى الجسر.

وفي الطريق، كادت السيجارة تحرق إصبعي، فطوحت بها. دارت في الهواء ثم استقرت أمامي، تذكرت أنها هي التي تبقت، كانت معي علبة من المدينة. توقفت، وأخذت واحدة غيرها من بلدنا، بها عشر سجائر أخرى، ومشط كبريت.

ثم بدت مقدمة القطار السوداء من بعد، حتى جاء ودخانه الأسود يحيط المكان كله، ويشمل بداخله محطتنا والرصيف ويشملني، واليافطة تقف إلى جانبي مرشوقة في قلب الرصيف.

ركبت.

وعادت العجلات ترقع القضبان، وعاد رأسي يدور.. وكانت به الحكاية كلها أثناء ما كان يدور.

توقفت نظرتي على الشباك.

طلمبتنا.. أو الجنازة التي صادفتها.

مضت ساعات منذ تركت المدينة، وستمضي ساعات حتى أصلها.

نفضت سيجارتي بحركة تلقائية، وحدقت في قضبان الشباك؛ كأني

في سجن، أو فأر في مصيدة.

جاءتني فكرة أني ربما كنت مسؤولًا عن ذلك كله.

لكن طردتها فورًا.

لم أعد أميل بعد إلى الأفكار الفكاهية، والتهريج أبطلته.

عينايَ كانتا على القضبان، فرأيت الصدأ، كان يغطيها، والحديد الأبيض، قد اختفى تمامًا تحته.

مددت ظفري، حككته، ظللت أحفر بها، حتى تؤلمني.

لم أتوقف.

كنت مهتاجًا، وكان الصدأ كله يغطي كل الحديد الأبيض!

استطعت بعد جهد أن أعيد البياض ثانية إلى مساحة ما على القضيب.

ونسيت لحظة، حتى طلمبتنا المخلوعة نسيتها؛ كانت الدنيا حَرًّا؛ لكن ابتسمت..

وكانت مساحة صغيرة قد صارت بيضاء!

رفعت عيني فجأة من مكاني المحدود، وشملت بنظرة قضبان كل الشبابيك.

كان الصدأ يغطيها كلها!

* * *

النضّارة

القمر الذي كان غائبًا، والجدار غارق في السطوح، وأصابع يدي مفرودة تبحث في الهواء الأسود.

الحساسية تكثفت وهبطت في أصابع قدمي، وبوز الحذاء مشحون بالقلق في بحثه عن الاستقرار.

ثمة لحظة تدهم الواحد منا عندما يكون واقفًا في المدخل المظلم، تختصر أماني العمر كله في مجرد العثور على درجة السلم.

حجرتي الضيقة فوق السطوح، كل شيء فيها أعرفه.

الفراش الصغير، وترابيزة عليها كتب، وابور سبرتو، مجلات وكتب على الأرض، بنطلوني وقميصي فوق مسمار على الحائط المقابل للفراش، وحذائي الأسود تحته.

كل شيء فيها أعرف مكانه بالعادة. يمكنني أن أمدَّ يدي إلى أي شيء أريده، وأدخل الحجرة في الظلام.

ما دمت قد صرت فوق السطوح.

مع ذلك انكسرت نظارتي الطبية.

كنت قد دخلت الطرقة المؤدية إلى الحجرة بعد أن وضعت المفتاح في بابها.. وأدرته، الطرقة تنتهي فجأة بباب مفتوح في الحائط، استدرت فانخبط وجهي في الحائط.

لم أتحسس الحائط، لكن استدرت فقط، ثم سقط قلبي مع سقوط النظارة.

أهل الفقيد ينامون ليلة ذهابه، وقد نمتُ.

فاتت ليلة، واليوم إجازة.

لي ساعة وأنا أسير.

مرت فتاة أمامي في الشارع. لا بد أنها كانت جميلة، وجهها، ساقاها؛ أين هما؟! البلوزة كانت بيضاء، والحذاء أبيض، وشعرها طويل أسود، كفاها فقط كانتا بقعتين غائمتين من البياض على الجيبة الزرقاء.

لم أرَ شيئًا ما بوضوح.

واختفت الفتاة في شارع جانبي.

وكنت أسير. الطريق يلمع تحت الأضواء. الناس مجرد لطشات من الألوان كلوحات الرسامين التأثيريين.

يدايَ كانتا في جيوب بنطلوني، فاصطدمت بواحد على الرصيف، واعتذر وأحسست بالارتباك، كنت أنا الذي صدمته في الواقع، فلا بد أنه يرى.

واصلت المسير...

وضع واحد يده على كتفي فجأةً من الخلف، فاستدرت وانطلق ضاحكًا، فعرفته. كان صديقي عليًّا، قال:

- انت فين؟ ما بنشوفكش!

مددت أصبعي إلى أعلى أنفي في حركة تلقائية، فاكتشفت أنني لم أكن ألبس النظارة، وأحسست فجأة بالألم.

حياني صديقي علي وانصرف. قفز الرصيف في رشاقة، وعبر الشارع. ولوحت لي يده من هناك.

ضايقت عيني، ذبذبة يده في الهواء، وأضواء النيون. لكنني تذكرت أيضًا من يلبسون مثلي نظارات طبية.

لحظات من الأسى مرت بي.

ولكنها مرت سريعًا.

ذلك أن الواحد يحس وهو لابس نظارة بيضاء شفافة ذات شنبر بني سميك.. بضرورة الحذر والوقار!

الرشاقة لا تنفعه حينذاك والانطلاق ممنوع، إذا كانت هناك نظارة ما فوق أنف الواحد.

والانفعالات يجب أن تكون محددة باحتمال وقوعها، إحساس جديد بدأت أمارسه.

لا أزال أسير في الشارع.. قابلني إعلان كبير مرقش بالألوان الزرقاء.. كان يتضمن صورة لفتاة طويلة.. وجهها بقعة وردية، وشعرها

أسود، ولون أحمر يغطي الفراغ، فوقه كتابة سوداء.

كان الإعلان فوق رأسي المبنى، فأتعبتني الرؤية.

خفضت عيني، وانحرفت قليلًا جهة الحائط. كانت خطواتي متباطئة، فمرت بي فتاة... حاذتني، فاستطعت أن أرى عينيها.. كانتا جميلتين واسعتين.. وحولهما رموش سوداء طويلة مصنوعة!

وانحرفت خطواتي بعيدًا عن الحائط. كنت غارقًا في التفكير، ولكن من الواجب عدم البعد عن الحائط؛ لأن المارة يقلون دائمًا بجانبه.

لماذا؟ سؤال ألقيته على نفسي، ثم أجبت عليه ساعتها؛ لأن لهم أعينًا.. ربما لا تكون واسعة ولا جذابة، ولكنها ترى.

الشكل لا يهم أحيانًا، تهم فعالية الشيء!

قدمتُ لهم بالأمس عملًا، وصفه صديق لي يلبس نظارة طبية بيضاء بأنه واضح ومرتبط. ربما كان يجاملني، فقد فشل مسعاي.

قالوا: تعال بعدين!

رد واحد أيضًا، وقال بإهمال: مش النهاردة!

قال حضرته إنه لا يريد! وبعد؛ هل أموت أنا جوعًا لمجرد أن حضرته لا يريد؟!

ما فائدة السؤال؟!

لم يحدث ذلك أمس فقط، إنما أصبح الجواب عاديًّا، لي شهور وأنا أسمع إجابات مماثلة.

سهرت لياليَ عديدة منكبًّا على العمل لأسمعها في الآخر، ثم انكسرت النظارة بعد ذلك.

يدي اليمنى كانت في جيبي.

أحسست فجأة بأصابعها تعبث بالشلن الفضة الذي بالداخل. تتحسس ملمسه البارد في فتور.

زيقت سيارة بجانبي تمامًا... توقفت فجأة، وصوت عجلاتها يحتك بالإسفلت، وضجيجها ملأ إحساسي بالرعب، وقلبي دق، وهبط على الفور في أحشائي، ثم وجدت نفسي بطريقة ما فوق الرصيف المقابل. كادت السيارة تلهفني. كيف رأيتها؟!

لنحدد السؤال: كيف رأيت الرصيف، واستطعت أن أقفز إليه؟!

هل هي حلاوة الروح؟!

ربما! لم أفهم شيئًا! حدث كل شيء فجأة! وانتهى فجأة!

وهدأ كل شيء. سرت على الرصيف. كأن شيئًا لم يحدث.

انتبهت، فوجدت أمامي دارًا للسينما، كان بها الفيلم الذي رأيتُ إعلانه في أول الشارع.

وجدتني وبيدي تذكرة، دخلتُ.. دفعني الناس، ودخلتُ.. دست على أقدام بعضهم فاعتذروا، وابتسمت في حرج، ثم دخلت!

كانت السينما مزدحمة، فلم أجد مقعدًا. ظللت واقفًا في الطرقة.، وكان الفيلم قد بدأ.

الشاشة كانت سائحة في بعضها، مجرد بقع ومساحات متداخلة في

بعضها، ووجدتني فوق كل شيء أضيق عيني لأقرأ الترجمة.

كنت قد اعتدت على المكان بعد لحظات، فاستطعت أن أتبين أناسًا واقفين جانبي في الطرقة.

وكان أحدهم ينظر إلى عيني.

لماذا ينظر إليَّ؟!

كان ينظر إليَّ باهتمام، ثم انطلق ضاحكًا، فأحسست بالقلق والتوتر. نظرت إليه برثاء. لا شك أنه واحد من التافهين الذين يضحكون لأسباب غير واضحة.

حاولت أن أتجاهله وأشاهد الفيلم.

ولكن...

ربما كانت نظرتي المريضة قد ضايقته؛ لأنه سألني:

بتضيق عينيك كده ليه؟!

ما له هو إذا كنت أضيق عيني أو لا أضيقهما؟!

شعرت بضيق يخنقني، وبرغبة في أن أصفع هذا الإنسان الثرثار. لكنه أضاف: ما تلبس نضارة!

ساعتها راح غضبي. نظرت إليه نظرة ميتة، كلها رثاء من أجله، وهززت رأسي في حركة لا معنى لها، ثم تحركت تاركًا له المكان.

هل أبحث عنه وأشرحها له، ولكن ما فائدة ذلك.

لا داعيَ.

أصبحت الوقفة مملةً، وعينايَ تؤلمانني.

تركت السينما، وخرجتُ.

وعدتُ أسير.

الطريق يلمع تحت الأضواء لا يزال. الضجة زادت حدتها. الصراع كان قد بدأ حقيقة في شوارع الأضواء والمتاجر والزحام.. والألوان سائحة في بعضها.. مثل لوحات التأثيريين.. وأسفلت الشارع يلمع تحت الأضواء الملونة ويزغلل عيني.

مددت أصبعي في حركة تلقائية إلى أنفي... لم تكن النظارة هناك! كانت هناك دمعتان. مسحتهما؛ فأنا لست صغيرًا.

عيب ماذا يقول الناس لو رأوني!

لا أحد يراني في الحقيقة. عندما يبدأ الصراع، لا أحد يعود بعد يرى سوى نفسه. لا يجب أن أبكي مع ذلك. البكاء حماقة مهما كانت الأسباب.

ثم...

وصلت إلى البيت أخيرًا. صعدت إلى حجرتي. فردت أصابعي في الهواء البارد الأسود أبحث عن الجدار. الجدار استندت إليه. حجرتي في آخره. الظلام لم يعد يشغلني.

الظلام عرفته. لكن الخروج إلى الطريق هو المشكلة.

الخروج يحتاج لنظارة بدل التي انكسرت. لا أستطيع أن أعيش من دونها، ولا أريد أن أموت الآن والرؤى أمامي غائمة!

أدركت الآن فقط أن نظارتي انكسرت.

كانت بيضاء شفافة، والشنبر بني سميك. أنا لا أريد شنبرًا سميكًا بنيًّا، ولا أريده مذهبًا بالطبع.

أريد نظارة فقط.

ولذلك لا بد أن أصنع واحدة... لا بد...

❊ ❊ ❊

الواد كبر

ما من واحد يمر في الشارع من أمام الدكان، ويرمي السلام على الموجودين، حتى يصرخ فيه حمودة:

– حانفتحها مانيفاتورة بإذن الله، وحتبقى عال.. والأُسطى سيد بيشتغل بمزاج أوي.. دا عامل أرفف وبتارين ولا أجزاخانة يا جدع، وعليكوم السلام.. اتفضل!

ودخلت بنت حمودة الصغيرة تطرقع بقبقابها، فصرخ فيها حمودة: اتأخرتي يا بت!

ومد يده، فتناول كوبة الشاي من يدها، وقدمها للأُسطى سيد ومعها سيجارة كانت في جيبه، وقال له بعد أن سوى طرفيها بأصابعه:

– مد إيدك الحلوة يا أُسطى سيد يا اللي قد الدنيا، عفر، واعمل الشغل اللي على أصله بقى!

وأمام باب الدكان كان يجلس الأُسطى نسيم على الدكة الخشبية، لا أحد يسأل عنه، وهو الآخر لم يكن بينه وبينهما عمار!

يسرح مع أفكاره طول اليوم، وينام أحيانًا وهو جالس في مكانه، لا ينتزعه من دنياه سوى كلام حمودة الذي يفور الدم، وتدليله لسيد!!

وأن يصبح الولد سيد –صبيه– أُسطى قدّ الدنيا، مسألة لا تغيظ أبدًا الأُسطى نسيم بقدر ما تشرفه وترفع رأسه.

ولكن حدث أن الأُسطى نسيم يغار من الولد، ولا يعترف باللقب الذي لبسه رغم صغر سنه، وشاع، وتداوله الناس!

ولا أحد يدري على التحديد مصدر هذه الغيرة، ولا متى بدأت، وإنما الذي نعرفه أن الأُسطى نسيم يغار من الولد وخلاص!

والمسألة على كل حال قديمة وتعرفها (الحتة) كلها، وتعرف أيضًا أن الأُسطى نسيم لم يتزوج في حياته، ولم ينجب، ولا أحد له فيما عدا الثرثرة والكسل.

يقعد اليوم بطوله على الدكة أمام باب الدكان، ويطلب البر أكثر من مرة.. ويفتعل رفع الكلفة.. ويزعم أن البيت –الذي هو بيت حمودة، خلف الدكان– بيته، ثم يتنهد في أسى، ويحكي عن الشجرة التي هو مقطوع منها، والنصيب الذي إذا انقطع لا يصله أحد، ومشاريع زواجه التي فشلت كلها، وبقي عازبًا حتى الآن، والستين التي فاتها في طريقه، كما يمرُّ الديزل على محطة تافهة، ثم يزفر، ويلوح بيده، ويطلب القهوة، ويدلف إلى حكاية جديدة، موجِّهًا حديثه إلى سيد:

– إمبارح يا واد يا سيد، وانا راجع، فُتّ على محمد بيه نصير، وقال ما انت قاعد يا أُسطى نسيم. قلت له: سايب الواد سيد لوحده. قال: لا ممكن. قلت: يا راجل ليه بس؟! قال: خيرك سابق. وبعد شوية يا سيدي لما انت دخلت الأنارب بالفريك، والقهوة كام دور والجوزة مغمسة، قلت لأ بقى إلا دي حاكم أنا راجل عجوز وصحة يا محمد بيه مفيش.

ونفخ حمودة من الغيظ! فلا بد لحكايات نسيم من مستمعين، وسيد يسمع له دائمًا، وهو وحده الذي يعمل، ولو سكت حمودة، لركنت الفارة، أو تصنع واحد منهما سنها، ولبطل المنشار تمامًا، وتحول الدكان إلى سامر!

ولم يكن في الاتفاق أن يدفع حمودة من أجل أن يحيوا له ليلة، وإنما من أجل أن يصنعوا له رفوفًا للدكان! ورمقه حمودة بنظرة ماكرة، وسرح في معنى كلامه، وهو يضمر له سوء النية مقدمًا.

-«ما معنى أن محمد بيه نصير يقدم الأنارب والفريك؟ هل يعتبر هذا احتجاجًا مستترًا على الفول الذي يقدمه لهم حمودة في العادة»؟! وضحك حمودة وهو يقول لنفسه:

«لا شوف غيرها يا أُسطى نسيم!»، ثم دس يده في جيبه، وأخرج السيجارة المتكسرة المعهودة، وابتسم في مكر.. ثم هتف:

- مد إيدك يا أُسطى سيد، يا اللي ماتوا النجارين بعدك!

ثم مال عليه وهمس في أذنه، وهو يشعلها:

- سيبك منه.. دا بيخرف وما بقاش له في الشغل. البركة فيك انت!

وصعدت دماء الخجل إلى خدود سيد، وهزه المدح فارتبك، ووقعت الفارة من يده!

والأُسطى نسيم قاعد في مكانه مثل خيال المآتة، يحسب كل شيء، ويرى حمودة ويفهمه، وأخيرًا قرَّر أن يعبس، ويلوي بوزه!

فالخطة التي يرسمها في رأسه قد فشلت، وحمودة فهلوي وبخيل

أيضًا.. شبعة بعد جوعة. سيد غلبان وعبيط! تدخل عليه نمر حمودة. حمودة يستغل غروره ويمتدحه، والولد يقتل نفسه في الشغل حتى يحافظ على رأي حمودة فيه ويزهو بالألقاب التي يكيلها له!

ووصل الأُسطى نسيم أخيرًا إلى قرار، معناه «أن الشغل بيك ومن غيرك، هيخلص. فانت تريح نفسك، والبركة في سيد، وكفاية عليه «البهوية».. اللي اداهاله حمودة!

بعدها كانت دقات الشاكوش تتتابع في سرعة والمسامير تغوص في العارضة الخشبية واحدًا بعد الآخر، والأُسطى نسيم كالعادة معووج على الكرسي أمام الباب.. يدعي القرف، ويزعم أنه متعب، وليس له كيف. والذي ضايقه أكثر، أنه لم يجد واحدًا وقتها مستعدًّا لأن يسمع ما فعله محمد بيه نصير معه أمس. فهو لم يكن قد أكمل الموضوع بعد، وأيضًا حدث أنه صفق مرات وطلب من -الجماعة- و«شقة حمودة خلف الدكان»، أن يسعفوه بالقهوة، ويكون البن «مضبوطًا»، ومرت ساعة ولم يسأل عن صحته أحد. وحبة الفول إذا وضعها واحد على أنفه لطرقعت، وابن المركوب.. الذي اسمه حمودة، هببها أكثر عندما جاء، والسيجارة المتكسرة في يده، وكوباية الشاي الواحدة في اليد الأخرى.. وصوته يسبقه:

- مد إيدك يا أُسطى سيد يا اللي قدّ الدنيا.

لا بد أن واحدًا أوصاه بأن يفعل ذلك معه، أو أن يكون متفقًا مع الولد سيد على تعكيره. وربما اليوم لا ينوي أن يفوت على خير! وشوَّح الأُسطى نسيم بيده في ضيق، وقال:

– انتوا باين نهاركو مش فايت! ما تبطلوا دوشة بقى! وجعتوا دماغنا!

«ما الذي ضايقه؟! واحد يحيى واحد ويوجبه... ما له هو؟! هل داس له أحد على طرف؟!».

لم يكتفِ حمودة بهذا الاحتجاج بينه وبين نفسه.. وإنما مال على أُذن سيد. ولا أحد يدري ماذا قال له.، ولكن فجأة، قال سيد كأنما على سبيل التسلية، وقتل الوقت:

– ما راحت عليك يا أُسطى نسيم زي ما راحت على عوالم بنها!

وفهمها نسيم لتوه.. فقال مسرعًا:

– لا أبدًا يا وله! العين ما تعلاش عن الحاجب، والدهن في العتاقي بأقولك!

ولكن الوله أجابه:

– لا.. دا بس من حلاوة الروح!

– يا واد انت لسه رحت وإلا جيت، وحتى الشوية الهمبكة دول ما انا اللي معلمهوملك برضه!

– وماله!

– وقفاك اللي كت عامله طبلة؟

– إحنا ولاد النهاردة!

نهار أبوك مثل الهباب يا سيد يا ابن حسان، هل وصل بك الغرور إلى هنا؟! والله عال! قُم إذنْ يا أُسطى نسيم من مكانك على الدكة الخشبية

التي أمام الباب، وافرك يديك ببعضها كما كنت تفعل في الأيام الخوالي، وافرد صدرك، وإن لم يعد ثمة صدر لك بعد، وأمسك بالشاكوش، وانزل به في -معلمانية- على المسامير التي غرزها الولد بأصبعه بطول العارضة الخشبية، وأره كيف يكون الشغل حقًّا، وامسح به أمام -الحمار- الذي اسمه حمودة نشارة الخشب التي تملأ الدكان!

كان سيد ساعتها يمسك بحفنة من المسامير في راحته وبعضها وضعه بين أسنانه، على سبيل -العياقة-، وراح يغرزها على طول البنك الذي انتهى من مسح قرصته أخيرًا، ولم يبقَ غير مسمرتها.

وقام الأُسطى نسيم فأمسك بالشاكوش في عصبية! وهوى به فوق رأس مسمار في أول قرصة البنك، وحدث ما لم يكن يتوقعه، انثنى المسمار فورًا!

كان وجه سيد ساعتها إلى الناحية الأخرى وهو يغرز المسامير على طول البنك.

وحسم الأُسطى نسيم ارتباكه سريعًا، ونقل إلى المسمار الذي يليه!

وحدث ما طير برجًا من أبراج عقل الأُسطى نسيم، فالمسمار اللعين انثنى هو الآخر!! وسيد لا يزال وجهه إلى الناحية الأخرى... -الحمد لله أنه لم يره-، وحمودة كان ينظر إلى الشارع. -هل ينظر إلى الشارع حقًّا، أم أنه يتظاهر؟ ما علينا. قالها الأُسطى نسيم لنفسه، ثم أهوى بعصبية شديدة على المسمار الثالث.

وطار برج آخر من عقل الأُسطى نسيم، فقد انثنى المسمار الثالث!

وسيد الذي كان وجهه لا يزال ملووحًا إلى الناحية الأخرى، انطلقت منه فجأة قهقهة ساخرة، كأنما كان يرى بظهره، وتتابعت ضحكاته مختلطة بضحكات حمودة الذي كان لا يزال بعدُ متعمدًا النظر إلى الشارع!

وطارت كل الأبراج الباقية من عقل الأُسطى نسيم مرة واحدة، ودارت به الأرض، عندما استدار سيد فجأة ناحيته، وقال له في هدوء، وهو يمد يده إلى الشاكوش:

«هات! ماتبوظش المسامير، عشان عاوزينها!»، وقتها كانت عينا الأُسطى نسيم مثل كاسات الدم، يطق منهما الشرر، وكان على وشك أن يبكي!

ولم يكن سيد موجودًا أمامه ساعتها، فيما عدا ابتسامته الزرقاء البشعة، وغروره الذي يغيظ، وارتفعت يد الأُسطى نسيم فجأة بالشاكوش دون أن يدري، وأهوى به بكل قوته فوق رأس سيد!

وبعدها أحس بالراحة، فقد تحطم شيء ما!

وكان سيد قد قفز في سرعة البرق إلى الناحية الأخرى من البنك، وأصبحت العارضة الخشبية نصفين.

ومرت لحظات...

هدأ بعدها الأُسطى نسيم شيئًا فشيئًا، وتراخت يده عن الشاكوش، وانفرجت عضلات وجهه التي قلصها الألم، وأخيرًا تنهد.. وهز رأسه عدة مرات في حركة رأسية، ثم قال، وابتسامة خجولة على فمه:

- طيب يا أُسطى سيد!

حمير التتريب

هز الحمار أذنيه يومًا ما، عندما التقى بإحداهن في طريقه، خرجت فجأة من الحقول، وسارت في نفس اتجاهه، فلم يتوقف لها أو يبتسم حتى، مجرد ابتسامة تشجعها على احتمال العمل؛ كما يفعل غيره من الحمير المحبة للحياة. وإنما الذي حدث أنه أصيب بالغرور، وبنوبة من نوبات التقدير المفاجئ لنفسه كحمار شغل، مع أنها كانت في العمل مثله، وتجاهلها تمامًا، فقط هز لها أذنيه!

فما هذا التصرف منه؟ وماذا لو أنها كانت محتاجة له؟ كان ذلك ما فعله الحمار، أما هو، وهو يسير معه، فلم يفهم يومها هل كانت تعبيرًا عن الدهشة هزة الأذنين تلك؛ أم كانت اعتذارًا، أم حسرة، أم مجرد حركة استهتار من حمار سبخ لا يفهم تصرفاته.

لم يفهمه رغم العشرة الطويلة، وحياته التي عاشها باندفاعة حمار تتريب وحموريته، وأنه اشتغل معه في الحقول مدة حتى تركها له في الآخر، حتى ترك له البلد كلها.

لكن ما ترك له تزمته، ولا العناد الذي لهذا الحمار، وعينته، من يوم ما جاءت حمير السبخ إلى الدنيا.

ظل محتفظًا أيضًا من صفات الحمار بقلة العقل، وانعدام الرغبة في التفكير رغم كونه وحيدًا كأصحاب الأفكار، وساهم مثلهم -بنظراته في الهواء.. وصمته دائمًا.. وإن كان الانشغال يفوح منه، لكنه مثل انشغال الحمير.. انشغالٌ بلا شيء!

كان يسير فقط، وقدماه تتبادلان بعضهما على حرف المروة، لا تخرجان عن الزيق الضيق الخالي من الندى، حتى ارتفعت السكة، وانفرشت بالزلط، وأحاطها سور ببضع قضبان في قلبه! ارتفع معها، وساح الماء في قبضته عندما انزلقت فوق القضبان وتساقطت قطرات الماء فوق الزلط المغسول بالندى، ثم دار مع القضبان لما دارت، لتصنع طريقًا ملتويًا إلى أعلى، ثم تاه في الناس الذين فوق الرصيف.

والحقيقة أنه لم يكن ثمة رصيف، ولا شيء، وإنما لأن الجسر كان مرتفعًا في الأصل عن السكة التي تحته، فقد ارتفع تبعًا له وبمرور الوقت. مكان ما اعتاد القطار أن يقف كل يوم فيه. ولأن ذلك قد حدث، أصبح ذلك المكان رصيفًا من يومها، ومحطة في الوقت نفسه.

وبنفس الغموض، اندقت في المكان طلمبة قديمة، يبدو أنها انتقلت بطريقة ما من مكان مجهول كما يبدو إلى جانب ذلك أن لها أهمية خاصة، تتعدى الأساطير التي يروق للشبان أن ينسجوها حول تاريخها وحول الأحداث التي شهدتها، ويتمادى بعضهم فيؤكد أنهم جمعوا ثمنها من جيوبهم، وأنهم أحضروها ملفوفة في الورق، ودقُّوها في هذا

المكان بالذات ليكسبوا بها إلى جانب استعمالهم الشخصي؛ ثوابًا في الغلابة الذي يقتلهم العطش في الحقول المجاورة للرصيف.

والبلد -إلى جانب الفقر الذي فاض عنها- اشتهرت كذلك «بالمعر»، وهو مرض يصاحب الفقر عادة، مما دفعنا إلى رفض هذا الزعم، ويؤكد ذلك حقيقتان: القدماء؛ وقد ذكروا صراحة أنه لم يكن هناك أي شيء بتاتًا في حداثتهم التي شهدها الرصيف من أولها. وبعد ذلك ذراع الطلمبة؛ الذي يخلعونه كل يوم؛ ويأخذونه معهم ويتركون الطلمبة نفسها للغلابة من دون ذراع.

وبعد ذلك؛ لم يكن هناك فوق الرصيف كشك للتذاكر؛ ولا استراحة ركاب ولا أي شيء مما تحفل به الأرصفة عادة.. فيما عدا الطلمبة.

وقد نشأت عن ذلك مشكلة قديمة، قدم الطلمبة، وربما أكثر قدمًا منها.. هي مشكلة التهرب من دفع النقود من ناحية، ورغبة الكمساري الشديدة في الحصول على هذه النقود من الناحية الأخرى. إلا أن هذه المشكلة لم تلبث لصعوبتها، حتى أفسحت المجال للخبث فتكفل بحلها، كما اعتاد أن يفعل بغيرها من المشاكل التي يتسبب فيها الناس الذين فوق الرصيف؛ وإن ظل حلًّا مؤقتًا مضطربًا كعادة الحلول التي يتدخل الخبث عادة في إقرارها. حتى هبط الحل المريح على الرصيف آخر الأمر في شكل عربة بهائم. أخذ القطار يأتي بها كل طلعة شمس مشبوكة في ذيله، لها باب عريض على الجنب، متربة، بهت لونها الأحمر واكتسى بالصدأ، فبدت فاتنة في شحوبها، وأشبه ما تكون بالبنت صفية، يقف الكل في انتظارها، وكأنها صُنعت لهم مخصوص.

لكنَّ بها عيبًا واحدًا؛ هي أنها كانت تجيء مشحونة دائمًا لآخرها بالبهائم في طريقها إلى المدينة، وربما يكون الناس الذين في المدينة؛ قد استقر رأيهم نهائيًّا؛ على أن يأكلوا البهائم؛ كل يوم بانتظام، وربما تكون المسألة غير ذلك، ولا تعدوا أن سوق البهائم في الشمال قد نامت قليلًا؛ بينما شدت الأسعار على الجهة القبلية من الرصيف. المهم أن العربة دَأَبَتْ على المجيء كل يوم والبهائم بداخلها، والمهم أيضًا أنها بقيت كعدمها بالنسبة لرحلة الصبح؛ وأصبح لزامًا على الخبث أن يتواجد في الصباح كالعادة.. وتدبر العربة برجوعها فارغة في قطار العصر.. أمر العودة.

لم تكن الشمس قد طلعتْ بعد، ولا القطار جاء. لكن فقط طول الوقت؛ كان الناس يجيئون من السكك؛ ومن ثم يقفون على الرصيف.

لكنه لم يعبأ بأحد.

لم يكن يعبأ بأحد؛ لا بالأنفار، ولا ذراع الطلمبة؛ ولا صفية نفسها كانت تهمه. ولا الولد الذي اعتاد أن يتعقبها؛ بذراع الطلمبة في يده، ولا رآها مرة وهي تغسل وجهها، لكنها فيهن لا بد. وشبشب أمها القديم؛ تحت إبطها، وأصابعها الدقيقة ممدودة تحت الماء، وجلبابها الأسود تجذبه بكوعها إلى أعلى، فيبين من تحته كعبها.

ما الذي يهمه هو من كعبها؟!

لم يعبأ من قبل بكعب أحد.

ما كان يدري، أي حكمة، ولا أي تجارب ماضية جعلت الهدوء

يركب ذلك النوع الكئيب من الحمير، وهو يرقب حمار السبخ لحظة ما التقى بأنثى من نوعه، ولا فهم حتى الآن السر الذي يكمن خلف امتناع الحمار عن ارتكاب أي حماقة من التي يأتيها الحمير في العادة.

كانت ركبته اليمنى ترتفع فجأة بمجرد ما يصل الحمار ليرتفع المقطف فوقها. مقطف قديم أسود؛ كان معه أيامها.. مصنوع من كاوتش لوري قديم مشقوق ومدقوق في بعضه بالمسامير، كان يرفعه ويدلقه في داخل الغبيط المفرود بشعبتين؛ مغروسة كل منهما في الأرض كأنهما مغروستان في قلبه.. والحمار واقف له؛ رأسه في الأرض؛ وعيناه جامدتان حزينتان.. ساهمتان في التراب إلى أسفل، ودمعة زجاجية كبيرة لا تنحدر أبدًا، لكن تظل معلقة في طرف كل عين منهما.

دمعة موجودة دائمًا في طرف عين أي حمار تتريب آخر.

ما رفع في مرة عصا عليه، اللقمة كان يخطفها مثله في السكة. عود من الحشيش ينزعه من على حرف المروة، ويحشو به فمه، أو كسرة عيش وفص ملح.. أما الحمار فينزع الأعواد الجافة؛ ويسف التراب.. يلمه بلسانه الطويل الجاف من الحوش.. ودفقات الهواء يدفعها من منخاريه، ويقف في وقت تحميله، يحرك فكيه فوق بعضهما، صامت دائمًا ومشغول في أمور مبهمة؛ صعبة الحل؛ وكأنه موظف قديم غارق في الأحزان.

وما كان النهيق يشكل مشكلة بالنسبة له، كغيره من الحمير المستريحة التي دأبت على الشكوى وافتعال الألم.

لا متاعب العمل، ولا مطالب القلب؛ واليأس من احتمال ألم الحياة،

ولا الضعف أمام إغراء الجنس الآخر. لا هي ولا أي شيء آخر غيرها دفعه إلى أن يلجأ في مرة إلى استعراض صوته الكئيب؛ وممارسة حقه الطبيعي كحمار تتريب في النهيق.

كان مشغولًا تمامًا بحمل التراب، فابتعد عن المجرى الطبيعي لحياة الحمير الأخرى وعكست عليه طريقة حياته تلك نوعًا من البلادة؛ وانعدام الحساسية تجاه بعض الأمور الخاصة للغاية، وأصيب مع الوقت بالقلق الذي أخذ يتسبب في صرير أسنانه فوق بعضها على الدوام وحركة فكه العصبية المستمرة؛ ومن ثم انتابه اليأس من جدوى إنفاق الحياة بطولها في حمل التراب وحده؛ وأنتج ذلك كله نوعًا غريبًا من الحقد، صبه كله فوق رأس الجنس الآخر، وقرر الابتعاد عنه.

وقد اختفت للحقيقة كل هذه الأسباب السرية؛ لأزمته كحمار سبخ فاقد للحياة واكتست بنوع من الغموض، فأحس فجأة ببرودة الهواء على الرصيف، وكان لا يزال يقف محدقًا في قلب الضباب، وظهره للطلمبة، فأحس بسخف الضحكات المنبعثة منها؛ وبسخف اللواتي يطلقنها، وأصيب بالقرف من رغباتهن التي تغلفها، وأحس بالشفقة المفاجئة على الحمار، وتعقدت مشاعره بالاضطهاد، وعيناه تائهتان.. والضباب يضللهما، ومرت به لحظات من الشجن أحس فيها بأخوة الحمار الذي كان معه؛ وتوحد طريقهما المترب في الحياة. وتذكر نفسه؛ كمخلوق غريب الأطوار، منعوه ذات مرة من أن يحمل ترابهم؛ فرحل ليحمل تراب الآخرين.

ذاب الضباب فجأة تحت أشعة الشمس، وأُضيء الجانب الشرقي

من الرصيف؛ فوضح لديه أن الخلق كلهم على هذه الحال؛ نوعان فقط، بعضهم حمير تتريب، والآخرون هم التراب نفسه، والذي خلق الحمير جعلها نوعين هي أيضًا، نوعًا يحمل السبخ، وآخر يحمل العمدة.

انفرج ضبُّه لحظتها في نصف ابتسامة صفراء غائمة؛ فأعول القطار؛ واقترب، وارتفع ضجيجه ومقدمته السوداء تتداخل في السواد الذي انتشر وخضب الهواء والندى ولف الرصيف كله في ملاءة سوداء كبيرة مقلوبة، ومدخنته تلقي تحتها بكل الدخان إلى أعلى في دفقات سريعة متوالية كملايين الغربان الدقيقة المتجمعة مع بعضها أو ملايين البنات المتشحات بالسواد؛ واختفى الأفق.. وأصبح وجود سماء للكون لحظتها أقل احتمالًا منه في أي وقت مضى.. وكانت الأنبوبة المعدنية البيضاء إلى أسفل تدلق الماء على الزلط بطول الشريط فتغسله، وتكاد تمسحه أمامها من على وجه الأرض والهواء قد انفتح فيه؛ والذراع البيضاء اللامعة تتحرك في عنف وسرعة.. إلى الأمام وإلى الخلف في حركة متواصلة لا تهدأ؛ كما كانت ساقه اليمنى ترتفع وتنخفض طول النهار تحت المقطف المصنوع من كاوتش اللوري القديم.

وهدأ القطار، فاندفعت إليه كل الكتل الصفراء التي على الرصيف، فاندفع معهم.

وتوقفت عربة البهائم أمامه تمامًا؛ صعد والتصق بحائط العربة الخلفي؛ في مواجهة عربة البهائم؛ وعشرات الرؤوس أمامه بداخلها؛ بهائم وأنفار؛ مختلطون ببعضهم البعض في ألفة ومودة لرحلة غامضة إلى المدينة.

غابت عيناه في الدخان وضجيج العجلات، وتهيأت له الحقول لحظتها مساحات عريضة مجدبة هجرتها الغربان، والطرق في وسطها كئيبة ضيقة، والحمير البائسة تذرعها في سذاجة تامة والسباخ والشمس والعصي لا ترتفع عن ظهرها طول النهار، وقطرات الماء التي حول الطلمبة تسيل وتتجمع في قنوات صغيرة تنحدر إلى أسفل، وتصب في «المروة» التي استدارت مع الجسر.

فمَن منهم الذي أصبحت الذراع عنده في الأيام الأخيرة التي مضت، أحس بالغيرة فجأةً؛ وبيد باردة صلبة تضغط قلبه. لكن سرعان ما جاءه استهتاره على الفور، وحاول أن يتجاهل الموضوع، لكن يبدو أن البنت نفسها لا تمانع في أن تكون ذراع الطلمبة له؛ فماذا لو اندلق الغشم على الدلال؟

كان على وشك أن يتحرك ويترك وقفته إلى جوار حائط العربة في مواجهة البهائم كان. ثم طرد الفكرة فجأةً بغباء حمار سبخ، وعاد له على الفور إحساسه بأهميته وفقره.. فاستعلى في حمق على لحظات الحنان التي جاءته، وعلى «المروة» التي استدارت مع الجسر، لفّت معه أكثر من مرة، وانحنت معه.

رفع رأسه لحظتها في كبرياء أبله! كانت البهائم أمامه في العربة المواجهة. لم يسترح تمامًا لرؤيتها فاستقر رأيه على مغادرة المكان، خصوصًا أن الكمساري لن يلبث حتى يجيء، ومن ثم يطلب النقود.

استدار، عندما طرأت فكرة مجيء الكمساري بباله، ثم تقدم في الممر داخل العربة، وأبطأ القطار وأخذ يتهيأ للوقوف، وارتفع ضجيج

العجلات والأقدام على سطح العربات، وانطلقت سحب الدخان الأسود وفي قلبها عدة صرخات مقبضة مفاجئة أطلقها في وجه الشمس، ثم همدت إلى جوار رصيف آخر.

هبط، وأخذ يذرع الرصيف وعيناه عبر شبابيك العربات تبحثان داخلها عن مكان الكمساري.

اصطدم على الرصيف بنظرة البنت.

كانت تجري في اتجاهه.

هبط أيضًا من على سطح القطار عمَّال الدريسة، وحاملو المقاطف السود والفؤوس، نزلت كذلك بنات الرصيف المتشحات بالسواد واندفعت طالبات المدارس؛ بوجوههن المغسولة جيدًا؛ فاتضح وجود ثيابهن الزاهية وتأكدت ألوانهن في السواد. ملكات عديدات من نوع رخيص شعبي، ومتوجات على ممالك خرافية.

لكنها لم تكن واحدة من ملكات النحل هؤلاء، وإنما فقط كانت على الرصيف، وابتسمت له، لمح ابتسامتها، وتذكر الحمار، فتعلق بأحد القضبان.

وتحرك القطار...

فضاع وجهها الدقيق المسحوب، وضاعت ابتسامتها له وغرقت في أمواج الدخان الأسود التي أخذت تدور في الفضاء وتتلوى، وترسم له أشباحًا شاحبة سوداء، تذرع الطرقات في ساعات العصر.

وتتأخر في العودة، وتقف على الكوبري في المدينة مع لابسي

الجلاليب المخططة، ويطلبن منهم الحماية من الكمساري.

ظل القطار مندفعًا، ومدخنته تُلقى بكتل الدخان إلى أعلى في دفعات سريعة متوالية والسواد ينتشر، وفي وسطه صفية الجميلة أكثر مما تحتمله بلدهم البور.

فمَن الذي أصبحت ذراع الطلمبة له؟

لم يفرد في مرة «جناحه» عليها أو على غيرها؛ لوم يقف كالآخرين أمام الكمساري ليخفي فتاة خلفه، وصفية -دونًا عن الباقيات- لا تحتاج لهذا العمل.. فهي باختصار لا تدفع.

نحيفة وضاحكة دائمًا، وعيناها واسعة، ووجهها شاحب، ووحيدة أمها؛ يتيمة ومدللة في حدود ثمانية قروش كاملة يوميًّا؛ وأبوها مات على السكة وترك الحمار في رحلة لم تتم.

فأصبحت مضطرة لركوب القطار إلى بلاد الناس وراء القروش الثمانية، بعدما كفت الحقول عن احتمالها، لكن لا تزال الجميلة -أكثر مما يحتمله فقرها- تمارس خفض صوتها وتغسل وجهها وتجرب النظرات، وتبتسم لأحد الناس إن التقت نظراتهما فوق الرصيف.

ويملؤها العشم في الحياة.

فلتفعل إن كان ذلك يروق لها.

أما هو؛ فلا يرى بقعة واحدة في حياته الضيقة المزمومة يمكنها أن تتسع لقطرة من دلالها.

ثم إنه وإن كان يملؤه الجهل بتفاصيل وجودها كله فهي ليست

وحيدة رغم كل شيء! لا يوجد مَن عانى وحدته، ولا يأسه سوى كائن فقط واحد لا غير؛ حمار السبخ القديم الذي ترك الحقول له، والتراب والمقطف الذي من كاوتش اللوري. وترك له أيضًا عبء مقارنة وجوده الضائع بوجود حمير الزينة التي تحمل العمدة وتمارس النظرات الزائغة بينما رأسه هو للأرض دائمًا ويحمل السباخ.

هي غير وحيدة أبدًا، فلها جمالها الذي انبثق كالمعجزة من أرض بلدتهم البور، ولها بلدهم بأكملها وهو موجودة كلها تقريبًا فوق سطح العربات، هذه البلدة التي رد لها اعتبارها مرة واحدة فقط؛ في جمالها.

رفع رأسه فجأة فواجهته البهائم. لم يكن يريد أن يتحرك. لكن المشكلة كانت موجودة، وأن تكون هناك مشكلة ثم تتدخل الظروف في شكل عربة بهائم؛ وتقسمها نصفين؛ تطيح بعيدًا بأحدهما وتُبقي الآخر ليس معناه أبدًا أن الواحد قد أصبح يرزح تحت نصف مشكلة، لكن تحت مشكلة في الحقيقة بأكملها.

عبر العربة؛ والتي بعدها، ثم...

توقفت فجأة في نهاية العربة الثانية. توقفت وارتفعت نظراته إلى فوق، وتوقفت على البنت التي كانت تبتسم فوق الرصيف، لم تكن تبتسم الآن، وإنما فقط كانت معلقة من أحد القضبان من ذراعيها بين العربتين؛ وثوبها الأسود يضرب الهواء؛ وساقاها عاريتان أمام النظرات.

وكان الكمساري يجذبها إلى أسفل من ذيل الثوب، بينما تنشب أظافرها في جدار العربة محاولة أن تصعد إلى السطح، والكمساري يجذبها من مكانه المنخفض والركاب حوله. لكن أحدًا لم يرَ أظافر

البنت وهي تنزلق على جدار العربة المصقول وتحفر طلاءها الفضي، وتجدف بقدميها في الهواء، كدجاجة مذبوحة.

اندفع لحظتها نحو الكمساري على الفور، وهجم فوقه، واندفع الناس بينهما. لكنه استمات حول عنق الكمساري ثم تهور، ثم استدار، وبصق فوق الناس الذين يحاولون أن يمنعوه، فهاج الكل، واندفعت العربة، خرجت كلها، وارتفعت الأحذية والقبضات.

ضربه، ثم تركوه في النهاية على أرض العربة، والدماء تنزف منه.

كانت «البلدة» قد نزلت كلها من فوق سطح العربات، وانقسمت فريقين.. أحدهما أخذ يسأل عن الموضوع؛ ويطلب التفاصيل، ويرغب في التعرف بالشخص الذي يوجد الحق معه؛ على وجه التحديد.

أما الآخرون؛ فقد اندفعوا في الخناقة، ورفعوا أكفهم الجافة في وجه الكل، فضربوا، وانضربوا، وسالت دماؤهم على أرض العربات في دقائق.

انتهت رحلتهم، فهبطوا قبل الكوبري؛ وانحدروا على الشاطئ الغربي للنيل؛ في كتل سوداء متربة، كما لو كانوا مطرودين من الجنة، وعلى وجوههم لا تزال آثار اللكمات والركلات، التي تلقوها لحظة ما امتدت أكفهم المتربة إلى التفاح.

أما البنات فقد تقوقعن على أنفسهن؛ في تجمعات ثلاثية حزينة صامتة. يملؤهن الإحساس بالذنب، وبأنهن من الأزل مَن يخلقن المشاكل، ويدفعن الرجال الصامتين المتزمتين إلى التهور؛ ومد أيديهم

في داخل الأشجار التي لا تخصهم.

اقتربت التجمعات السوداء الثلاثة من بعضها البعض، والتأمت حول الجرح الرطب؛ زميلتهن التي رغبت فجأة؛ في أن تصعد سطح العربات؛ فخلقت رغبتها الغريبة تلك أحدثَ خناقةٍ عاديةٍ من التي لا تحدث غالبًا لأسباب أهم.

انفتحت الشمس، وغمرت الشاطئ الغربي، وشعشعت في الماء، وأكدت وجود المداخن الطويلة التي على حافة النهر؛ جنب بعضها مستقيمة وعالية.. ودخانها الأسود يرتفع في الهواء ويختلط بالكتل السوداء المندفعة إلى الخلف.. من مدخنة القطار الذي كان يعبر الكوبري نحو الجنوب ودار الدخان الأسود وتلوى في الفضاء؛ كمثل ملايين الغربان المتجمعة على بعضها؛ أو ملايين البنات الغارقات في السواد والمنتشرات فوق الأرض الخضراء الوضيئة، وأشعة الشمس كالندوب.

وكانت أسوار مصانع الطوب المتهدمة تنفتح، مثل أبواب قديمة فجرتها قنابل مجهولة التاريخ، إلى التراب والطين والدخان.

ظل يجر المقطف طول اليوم، ويزنقه بين قدميه والفأس ترتفع وتهوي على الأرض، حتى يمتلئ المقطف، فيعتدل وترتفع ساقه اليمنى فجأة إلى أعلى ويرتفع المقطف الأسود الذي من كاوتش لوري قديم فوق ركبته، ويداه الغليظتان المشققتان كل واحدة منهما عليَّ وتنحني هي وتقصر.. وتنزل بقامتها الطويلة في الأرض إلى أسفل؛ لتصبح أمام ركبته، وتحيط المقطف بيديها الخاليتين من الأساور ومن كل شيء،

تحيطه بهما من تحت، ويرفعه لها من أذنيه، وينتقل الأسود من كاوتش اللوري، ينتقل من فوق ركبته لفوق رأسها.

تذهب في طابور ورأسها محني؛ وتعود في طابور آخر إلى جانبه. والمقطف الأسود فارغ في يدها؛ في أيدي الطابور كله؛ وهو ينظر بعينيه الضيقتين الجامدتين؛ في الطابور؛ والبنات تصعد النقرة الواسعة التي فحتوها في الجسر، وأقدامهن غارقة في النشع.. الهواء يضرب الثياب السود من الخلف؛ فتحدد الظهور.. جافة متخشبة كظهور الرجال، وسيقان رفيعة سوداء مشققة من برودة الماء؛ ومن الصهد الذي على سطح الأفران؛ وطابور أسود آخر يهبط النقرة إلى أسفل بوجوه شاحبة صفراء كانت مغسولة كلها بالصابون على الرصيف، لكن كانت كلها رغم الصابون؛ صفراء باهتة؛ وهو ينظر فيها؛ وجافة مطبقة كوجوه الحشاشين مليئة بالحفر وبالنتوء ومحسوبة على أنها وجوه نساء.

حاول هو نفسه أن يبتلع هذه المغالطة البسيطة، لكن عناد الحمير الذي اعتاده سرعان ما كان يركبه في كل مرة وهو على حافة الغطرسة؛ وتجاهل الفكرة. وإذ ذاك لم يكن في استطاعته أن يقتنع بأن تلك الوجوه هي لنساء في الأصل، وأن كل ما في الأمر هو أنها مبلولة بالكآبة وجافة إلى حَدًّ ما.

كانت باختصار وجوه حمير في رأيه، وبالذات حمير سبخ.

وهو رأي مندفع؛ وعاطفي؛ ولولا تبعيته التامة لحمار التتريب الذي كان يعمل معه، واستكانته وضعفه؛ في مقابل شخصية حمار التتريب القوية، وسيطرة أفكار الحمار وميوله الواضحة التي تركها تنعكس عليه؛

لولا ذلك كله لما كون في البنات المكسورات الجماح رأيًا متهورًا على هذا النحو.. ولكن حدث منه ذلك وانتهى الأمر.

تذكر لحظتها أيضًا؛ حقيقة أنها تحصل لنفسها على ثمانية قروش يوميًّا، بينما الحمار لا يمد يده مطلقًا إلى النقود.

لكن لم تتمكن كل تلك القروش الثمانية التي تذكرها؛ أن تغيره؛ ولا ضعف أمامها.

فلأن الحمار لا يقبض؛ لم تكن لديه أي تعليمات تخص النقود؛ فمن أي طريق آخر غير الحمار يمكنها أن تجيئه؟!

كانت تلك القروش هي الحقيقة الوحيدة التي استطاع أن يتجاهلها، مثل حمار التتريب إذنْ، ومثله كانت البنت، لكنها أكثر ضعفًا؛ وأكثر حبًّا للبكاء، وتضحك كثيرًا أيضًا، وذات مزاج رقيق هادئ يميل إلى الأحزان.

اصفرت الشمس، فالتأمت المقاطف والفؤوس والتجمعات السوداء في موكب طويل؛ يزحف نحو الرصيف.

توقفوا فوقه في انتظار عربة البهائم. وقفت البنت إلى جانبه ورأسها للأرض؛ لكنه فجأة رفع رأسه ولمح ذراع الطلمبة في أحد الأيدي.

تقدم في هدوء وانتزعها عنه؛ وكانت الأعين ترقبهما، لكنه انتزعها فقط.. ثم جاءت العربة في ذيل القطار كالعادة.

صعد، و.صعدت؛ وانكمشت إلى جواره في أحد أركانها.

وبدأ الأفق ينزف ويزداد شحوبًا والدخان ينتشر ويسير فوقهم؛ حتى توقفت العربة أمام رصيفهم.

ألقى بنفسه منها؛ وقفز الآخرون، وامتدت الأيدي إلى البنات والفؤوس والمقاطف، وامتلأ الرصيف.

وانحدروا مع الجسر؛ وهو لا يزال واقفًا أمام العربة. ارتفعت فجأة دون أن يدري؛ ركبته اليمنى؛ كما اعتاد أن يرفعها تحت المقطف القديم الأسود؛ المملوء بالتراب، فخفضت البنت رأسها، وابتسمت، واستقرت فوق ركبته؛ فأحس لحظتها بشوق غريب إلى الحمار والشعبتين المغروستين في الأرض. أحس بالغربة، فضغط عليها! ارتعش وهو يحس بنعومة جسدها الدافئ، قلبه انقبض؛ وإحساس غريب دهمه لحظتها؛ إحساس بأنه خان الحمار.

أنزلها وأصابع قدميها فوق الزلط تتقلص وتنفرد، وتستميت في المحاولة، والأرض ترتعش تحتها؛ كأنها مشنوقة من ذراعها؛ ترفس الهواء كدجاجة مذبوحة.

تذكر الولد لحظتها في شحوبه، وجلبابه الملون الذي اندس به وسط الخناقة يسأل عن السبب.

تحركت العربة الفارغة في ذيل القطار إلى الشمال.

فتحرك هو أيضًا؛ هبط المنحدر؛ فتبعته؛ سارت إلى جانبه والفؤوس أمامها؛ والثياب السود والصمت.

وكان الدخان يتصاعد من قلب الدور، والحطب فوق الأسطح تحت الدخان، والبلد أمامهم؛ كأنها حريق قديم لا يندلع ولا يهدأ؛ لكن يتصاعد فقط من قلب الدور ويتحول إلى الدخان.

أخذت قدماه تتبدلان بعضهما على حرف «المَرْوَة»، وقدماها خلفه؛ ووجهه للأمام، والفؤوس تذوب من حولهما؛ وتتناقص مع كل خطوة والثياب السود تفترق وتتلاشى في داخل الدروب، والمساء يزحف.

والحمير تتجمع على السكة من الحقول وتقترب، والتراب يرتفع تحت حوافرها، ويثور ويعفر الليل.

أحس بذراع الطلمبة باردة في يده، فشد قبضته عليها فجأة، وكأنه قرر أن يعتصرها، أو يهبد بها أحد الناس.

لكن لم يفعل، وإنما فقط مد يده في صمت للتي كانت تسير خلفه، وترك ذراع الطلمبة في يدها! تركها ثم مال؛ واندفع في طريق آخر في طريقه.

يومها وجد البهائم من أبناء بلده فيما حدث؛ واحدًا آخر من تصرفاته الغريبة التي تجيئه؛ ودليلًا على غبائه؛ يضاف له؛ وقرروا في اختصار أنه حمار تتريب من يومه؛ وفي غير استطاعته أن يكون غيره.

وعلى عادة هذا النوع من الناس؛ لم يهدأ لهم بال، حتى ناقشوا كل ما حدث وقتلوه بحثًا. ثم تهوروا ولخصوه في حكمة أرادوا أن تكون إضافةً منهم للصالح الغرامي العام؛ وأن يكتب لها القبول، ثم الزعامة إن أمكن.

وقد ظهر فيما بعد أن أغلب هؤلاء هم تقريبًا عتاة المحبين، وزعماء الوداد في البلد؛ وهو أمر قد يعكس معناه الذي لا يستهان به في صدور حكمتهم عن التجربة.

لكن للحق، وُجد أيضًا معارضون، وإن كانوا أفرادًا لا قيمة لهم،

وهذا في صالح الحكمة نفسها؛ لأنه على عادة الحكم المتينة لا بد أن تُعارض وتكون لها عقبات.

وقال هؤلاء -وإن كان الشك فيما قالوه شيئًا لازمًا؛ لأنهم لم يستندوا سوى على حادثة لا قيمة لها.. خناقة لا أكثر.. هي على التحديد.. نفس الخناقة التي حدثت في القطار يومها.. وتسبب فيها إخلاص الكمساري في عمله الذي هو تحصيل النقود، وزعموا أنهم اكتشفوا من خلال الخناقة بطلًا.. انضرب حتى الموت؛ في سبيل الواجب فقط، هذا ما قالوه رغم علمهم بحمقه وابتعاد تاريخه كله عن السير في الطرق المؤدية إلى ألقاب من مثل هذا النوع.

قالوا حكمة هم أيضًا، وربما يكشف هذا بدوره عن هوان شأن الحكم في أيامنا أن يصبح اختراعها سهلًا على هذا النحو.

وكان ما قالوه سخيفًا مثلهم، وليس حكمة في الواقع على الإطلاق؛ وإنما سؤال يكشف عن العبط وحده. تساءلوا عن أي طريق كان عليه أن يختار؟ سوى طريقه الذي تقع داره في آخره مادام لم توجد طريق تلف البلد كلها؛ وتكون فيها داره ودارها معًا رغم المسافات.

أكثر من ذلك أنهم تهكموا على البلد التي تلم الضائعين أمثالهم، وقالوا إنها حوارٍ ضيقة، كلها كالثعابين، ومظلمة وأكثر عددًا من الدور نفسها.

وعلى العموم لم ينتهِ الخلاف إلى الآن بين الطرفين، وما نتج عنه شيء.

فئة واحدة فقط بقيت كما هي بعيدة عن الكل، ولم تدخل في كلام من أي نوع؛ هي الفئة التي اعتادت أن تلبس الجلاليب ألوانًا؛ ولها ياقات في أعلى، وتزينها الخطوط متشابكة في كل اتجاه.

ويقول القدماء المجربون من على الرصيف وأيديهم على فؤوسهم؛ ونظراتهم ثابتة على الأفق: إن يد الطلمبة كانت دائمًا تدور دورتها في كل مرة، وتعود لواحد من هؤلاء في الآخر.

* * *

الدسوقي فهمي

- مواليد ١٩٣٨ - بركة السبع - محافظة المنوفية.

- تخرج في كلية الفنون الجميلة القاهرة قسم التصوير ١٩٦٣.

- حصل على دبلوم دراسات عليا (آثار مصرية) جامعة القاهرة ١٩٧٣.

- مراقب عام الرسم الأثري بهيئة الآثار (سابقًا)، اعتزل الوظيفة ليتفرغ تمامًا للتصوير والكتابة ١٩٩٣.

- أقام معرضًا بعنوان الطفولة في مصر القديمة ١٩٨٠ في متحف المنيل؛ صوَّر فيه أساطير الطفولة في مصر القديمة.

- شارك الأثري الفرنسي جان فيليب لوير في أعمال بهو الـ(حب-سد) أو (العيد الثلاثيني) تجديد شباب الملك زوسر الطقوسي- أسرة ثالثة دولة قديمة في مجموعته الهرمية بسقارة، وذلك في معرض تذكاري احتفالًا بأعمال وكتب وحفائر وترميمات جان فيليب- لوير المعمارية في منطقة سقارة ١٩٨٠.

– من ترجماته (أمريكا) لفرانتس كافكا، نُشرت مسلسلة برسومه في جريدة المساء ١٩٧٠، ثم صدرت في روايات الهلال أغسطس ١٩٧٠. (الدودة الهائلة) قصص لكافكا آفاق الترجمة ١٩٩٧، و(رسائل إلى ميلينا) لكافكا آفاق الترجمة ١٩٩٨. وقد نُشرت جميعها من قبل أيضًا مصحوبة برسومه في جريدة المساء ١٩٦٨ و ١٩٧٨.

– نشرت قصصه القصيرة المؤلفة في المساء والملحق الأدبي لجريدة المساء والهلال والكاتب وصباح الخير وجاليري ٦٨ وسنابل وغيرها منذ ١٩٥٩.

– أُذيعت أعماله وترجماته وكتاباته عن الفن في إذاعة البرنامج الثاني من ١٩٧٩ إلى ١٩٩٢.

– عضو مؤسسة بنقابة الفنانين التشكيليين واتحاد الكتاب.

– شارك في المعرض العام وصالون القطع الصغيرة بدوراتهما المختلفة.